كامل كيلاني

قصص شكسبير

الملك لير

رسوم: ماهر عبد القادر

١ ـ قِصَّةُ عَجُوزٍ

كانَتْ مَمْلَكَةُ «إنْجِلْتِرَا» ـ حينَ وَقَعَتْ حَوادِثُ هَذِهِ القِصَّةِ ـ تَمُرُّ بأَحْداثٍ وخُطُوبٍ (مَصائِبَ)، لا عَهْدَ لَهَا بأَمْثَالِهَا مِنْ قَبْلُ. وإلَيْكَ ما تَقُصُّهُ عَجوزٌ نَيَّفَتْ (زادَتْ) عَلَى خَمْسِينَ وَمِائَةٍ مِنَ السِّنينَ:

قالَتِ العَجوزُ:

«لقَدْ عِشْتُ أَكْثَرَ مِن مِائَةٍ وخَمْسِينَ عامًا. ورَأَيْتُ في طُفُولَتِي ـ مِنَ الكَوارِثِ والْمِحَنِ ـ مَا لَمْ يَخْطُرْ لإنسانٍ علَى بَالٍ. ولا زِلْتُ أَذْكُرُ تِلْكَ العَواصِفَ الْهُوجَ حينَ اكْتَسحَتِ الغاباتِ، ثُمَّ أَعْقَبَهَا فَيَضانُ الأَنْهارِ؛ فأَغْرَقَ مِنَ البِلادِ ما أَغْرَقَ، وأَهْلَكَ مِن الْحَرْثِ (الزَّرْعِ) والنَّسْلِ (الأَوْلادِ) ما أَهْلَكَ!

لا أَزالُ أَذْكُرُ ـ إلى اليَوْمِ ـ ذَلِكَ العَهْدَ الَّذِي شَهِدْتُهُ في طُفُولَتي، وأَتَمَثَّلُ (أَتَصَوَّرُ) حَوادِثَهُ البَعيدَةَ، كأَنَّما وَقَعَتْ أَمْسِ. ولكِنَّ مَا حَدَثَ في هذا العامِ، قَدْ مَحَا ـ أَوْ كادَ ـ كُلَّ ما اسْتَعْظَمْتُهُ مِنَ الأَحْداثِ المَاضِيَةِ. ولَيْسَتْ تِلْكَ الْمَصَائِبُ الَّتِي حَلَّتْ بِبِلادِنا ـ في ذَلِكَ الزَّمَنِ البَعيدِ ـ إلَّا شَيْئًا يَسِيرًا تَفِهًا (لا قِيمَةَ لَهُ)، إذا قِيسَتْ بِما وَقَعَ في هذا العامِ.

فقَـدْ تألَّبَتْ (تَجَمَّعَتْ) قُوَى الشَّـرِّ، واجْتَمعَتِ الكَوارِثُ، وتَتابَعَتِ الأَحْـداثُ، وتفَنَّنَـتِ الأَبالِسَـةُ والشَّـيَاطِينُ في إغْرَاءِ النَّـاسِ بضُرُوبٍ (أصْنافٍ) مِنَ الظُّلْمِ والقَسْوَةِ والأَنانِيَّةِ (حُبِّ الذَّاتِ)، وَما إلَى ذلكَ مِن ألْوانِ الشَّرِّ، وأفانينِ الشَّقاءِ (أنْواعِ الشِّدَّةِ والعُسْرِ).

وفي شَـمَالِ «إنْجِلترَا» طَغَتْ أَمْواهُ البُحَيْراتِ، وأغْرَقتْ مِنَ السُّكَّانِ والمَساكِنِ آلافًا.

ثُمَّ جَاءَ الشِّـتاءُ؛ فَخَرجَتِ الذِّئابُ وأصْنافُ الْوُحوشِ الضَّارِيَةِ مِنْ مَكامِنِهَا، والْتَهَمَتِ الأَغْنامَ في رائِعَةِ النَّهَارِ، دُونَ أنْ تُبالِيَ كائِنًا كانَ!

وعاثَـتِ الْخنَازِيـرُ الْبَرِّيَّـةُ في أزِقَّـةِ القُـرَى؛ فَمَلأَتِ الْقُلـوبَ ذُعْرًا (خَوْفًا)، وقَسَـتْ قُلوبُ النَّاسِ، ونَمَتْ بَيْنَهُمْ بُذُورُ الشِّقاقِ والتَّفْرِقَةِ، وحَـلَّ الْخِصامُ مَحَلَّ الْوِئامِ (الْوِفَاقِ)، وسَـرَى الْخُلْفُ بَيْنَ الأَزْواجِ، ثُمَّ انْتَقلَتْ عَدْواهُ إلَى الأَطْفَالِ؛ فأَصْبَحَتِ البِلادُ جَحِيمًا لا يُطاقُ!!».

٢ ـ مِعْرَجانُ الْمَلِكِ

هـذا بَعْضُ ما قَصَّتهُ عَجوزُ ذلِكُمُ الزَّمـانِ، ورَأَتهُ رُؤْيَةَ الْعِيانِ. وقد تَوَخَّيْتُ (تَعَمَّدْتُ) أنْ أُثْبِتَهُ لَكُمْ ـ أيُّهَا الأَصْدِقاءُ الأَعِزَّاءُ ـ لِتَعْرِفُوا متَى وَقَعَـتْ حوادِثُ هذِهِ القِصَّةِ؟ وَفي أيِّ عَهْـدٍ ـ مِن عُهودِ الاضْطِرابِ ـ

مُثِّلَتْ فُصُولُها المُحْزِنةُ؟

وَكانَ بَدْءُ هذِهِ الأَحْداثِ المُفَزِّعَةِ يَوْمَ الْمِهْرَجانِ الَّذي أقامَهُ الْمَلِكُ «لِير» في قَصْرِهِ الكَبيرِ، مُنْذُ أَلْفَيْ عامٍ.

وقدِ اعْتَزَمَ الْمَلِكُ أنْ يَقْسِمَ مُلْكَهُ العظِيمَ بَيْنَ بَناتِهِ الثَّلاثِ، ويَرْفَعَ عَنْ كاهِلِهِ أَعْبـاءَ المُلْكِ (أَثْقالَ الْحُكْمِ) ويُرِيحَ شَـيْخُوخَتَهُ، ويَقْضِيَ أَيَّامَهُ الأَخِيرةَ في أَمْنٍ وَسَلامٍ، وادِعَ الْخَلَدِ (مُسْتَرِيحَ القَلْبِ)، ناعِمَ الْبالِ.

وكانَـتِ الأَنـوارُ سـاطِعَةً في كلِّ مكانٍ مِـنْ قَصْرِ الْمَلِـكِ، تَنْعَكِسُ أَضْوَاؤُهـا الْبَهِيجَةُ عـلَى أَعْمِدَةِ الْقَصْـرِ الذَّهَبِيَّةِ، وتَصاويـرِهِ الْمُبْدَعَةِ الفَنِّيَّةِ. وهِيَ تُمثِّلُ انْتِصارَ المَلِكِ «لِير» على أَعْدائِهِ في زَمَنِ صِباهُ.

وكان المُتأمِّلُ لا يَمْلِكُ نَفْسَـهُ مِنَ الْحَسْـرَةِ والأَسَفِ، كُلَّمَا وَقَعَتْ عَيْنَـاهُ على هذا الْفَتَى القَوِيِّ «لِيرَ» الْجَـريءِ البَاطِشِ (الآخِذِ بعُنْفٍ)، الَّذِي تُمَثِّلُهُ تِلكَ التَّصَاوِيرُ الْمُعْجِبَةُ، وقابَلَهَا بهذا الشَّيْخِ «لِير» الْماثِلِ (الواقِفِ) في الْحَقْلِ، وقدْ جَلَّلَ الشَّـيْبُ رأْسَهُ، وقَوَّسَتْ قَناتَهُ السِّنُونَ (حَنَـتِ الأَعْوامُ ظَهْرَهُ)؛ فانْتَظَمَتِ الرِّعْشَـةُ يَدَيْـهِ النَّاحِلتَيْنِ، وأَصْبَحَ يَمْشِي إِلَى الفَناءِ (المَوْتِ) بِخُطُواتٍ سَرِيعَةٍ.

وَقـدِ اجْتَمَعَتْ في ذلِـكَ الْمِهْرَجانِ حاشِـيَةُ الْمَلِكِ وقُوَّادُهُ وسَـراةُ البِلادِ (رُؤَساؤُها)، وجَلَسَ إلى جانبِهِ وزيرُهُ المُخْلِصُ الأَمينُ: «كَنْتُ» ونَدِيمُه (صاحِبُهُ) المُخْتارُ: «بُهْلُولٌ».

الفَصْلُ الأَوَّلُ

١ ـ عَهْدُ الشَّيْخُوخَةِ

تَبْدَأُ هذهِ الْقِصَّةُ حِينَ بَلَغَ الْمَلِكُ «لِير» الثَّمَانِينَ مِنْ عُمُرِهِ، وأَصْبَحَ شَيْخًا يَجْمَعُ ـ إِلى ضَعْفِ الْجِسْمِ ـ خَطَلَ الرَّأْيِ (فَسادَ التَّفْكِيرِ)، وسُوءَ التَّدْبِيرِ.

وَكَانَ الشَّيْخُ «لِير» ـ في هذِهِ المَرْحَلَةِ الأخيرةِ مِن سِنِيِّهِ ـ شَدِيدَ السَّآمَةِ والضَّجَرِ. وَقَدْ زَهَّدَتْهُ الشَّيْخُوخَةُ في كُلِّ شَيءٍ مِنْ مَبَاهِجِ الْحَيَاةِ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُ مِنْ أُمنِيَّةٍ (رَغْبَةٍ) يَرْجُوهَا، ويَأْنَسُ بِهَا في الْحَيَاةِ إلا بناتُه الثَّلاثُ.

وكان الْمَلِكُ «لِير» يُحِبُّ هؤُلاءِ البناتِ حُبًّا شَديدًا، ولا يُطيقُ الصَّبْرَ على بِعادِهِنَّ.

٢ ـ بَنَاتُ المَلِكِ «لِير»

وكانَتْ فتاتانِ ـ منْ بناتِهِ الثَّلاثِ ـ قد زُوِّجتا أميرَيْنِ. أمَّا الثَّالثةُ ـ وهِيَ صُغْرَاهُنَّ ـ فقَدْ جَاءَ الآنَ مَلِكُ «فَرَنْسَا» وأَحَدُ أُمراءِ «إنجلترا»

وَنَزَلا ضَيْفَيْنِ عـلى الْمَلِكِ «لِير» وأَقَامَا في قَصْرِهِ، وَكَانَ كِلاهُما راغِبًا في أَنْ يَتَزَوَّجَ «كُرْدِلْيا»: صُغْرَى بناتِهِ.

وَأَمرَ المَلِكُ «لِير» باسْتِدْعَاءِ بناتِهِ الثَّلاثِ، وَقَالَ لَهُنَّ:

«لَقَـدْ عَنَّ لي ـ يا بناتيَ العَزيزاتِ ـ أَنْ أَقْسِـمَ مُلْكِـي بَيْنَكُنَّ. ولكِنَّني أُحِبُّ أنْ أَتعَرَّفَ ـ قَبْلَ كُلِّ شَـيْءٍ ـ مَدَى (مُنْتَهَى) حُبِّكُنَّ إيَّايَ، لِأَرَى رَأْيِي».

٣ـ حَدِيثُ «جُنْرِيلَ»

فَتَقَدَّمَتْ كُبْرَى بناتِهِ، واسـمُهَا «جُنْرِيـلُ»؛ وكانَتْ ـ عَلَى الحقيقةِ ـ امرأةَ سَـوْءٍ (خَبِيثَةً)، تَجْمَعُ ـ إلى رِيائِهَا النَّـادِرِ ـ لُؤْمًا وخُبْثًا عظِيمَيْنِ. وَلَـمْ تَكُنْ تُضْمِرُ لأَبِيهَا شَـيْئًا مـن الْحُبِّ، ولكِنَّهـا رَأَتْ أَمامَها فُرْصَةً سانِحَةً لِتَمْلِيقِهِ (مُخادَعَتِهِ) والتَّوَدُّدِ إلَيْهِ؛ طَمَعًا في المِيراثِ الَّذِي لَوَّحَ (أَشَارَ) لَهَا بِهِ. فقالَتْ لَهُ، وهيَ تَتَظَاهَرُ بالْحُبِّ والوَفَاءِ والْحُنُوِّ:

«إنَّ حُبِّـكَ (مَحَبَّتِـي لَكَ) ـ يا أَبِي ـ لأَجَلُّ وأَعْظَمُ مِـنْ أَنْ تُعَبِّرَ عَنْهُ الأَلْفَاظُ. كَيْفَ لَا، وأَنْتَ أَعَزُّ عَلَيَّ من إنسانِ عَيْنِي (سَوادِهَا وَحَدَقَتِهَا)، وأَثْمَنُ لَدَيَّ مِنْ نَفْسِي، وحُرِّيَّتِي، وجَمَالِي، وصِحَّتِي؟!».

فابْتَهَجَ المَلِكُ «لِير» بِسَمَاعِ هذا الثَّناءِ الزَّائِفِ (المَغْشُوشِ)، وَقَالَ لَهَا مَسْرُورًا:

«مـا دُمْـتِ تُحِبِّينَنِـي إلَى هَذَا الْحَـدِّ، فَإِنِّي جَديـرٌ بِأَنْ أَمْنَحَـكِ ثُلُثَ مُلْكِي. فأَنْتِ ـ فِيمَا أَرَى ـ حَقِيقَةٌ بِهذِهِ المُكافأةِ».

٤ ـ حَدِيثُ «رِيجَانَ»

ثُمَّ الْتَفَتَ إلى بِنْتِهِ الوُسْطَى قائِلًا:

«إلَى أَيِّ حَدٍّ بَلَغَتْ مَحَبَّتُكِ أَبَاكِ يَا «رِيجانُ»؟».

فقالتْ له مُرائِيَةً مُتَوَدِّدَةً (مُظْهِرَةً مِنَ الْمَحَبَّةِ والْمَوَدَّةِ خِلافَ ما هِيَ عَلَيْهِ):

«إنِّي أُحِبُّكَ ـ يا أَبَتَاهُ ـ قَدْرَ ما تُحِبُّكَ أُخْتي «جُنْرِيلُ» إنْ لَمْ أَزِدْ عليْهَا؛ فليْسَ لي في هذِهِ الدُّنْيَا كُلِّهَا شُغْلٌ يَشْغَلُنِي عَنْ ذِكْرَاكَ، أَوْ يُحَوِّلُني عَنْ حُبِّيكَ، أوْ يُنْسِينِي بِرَّكَ بِي. وما أذكُرُ أنَّنِي غَفَلْتُ عَنِ التَّفْكيرِ فيكَ ـ يا أَبَتِ ـ لَحْظَةً واحدةً».

ففَرِحَ المَلِكُ «لِير»، وتملَّكَهُ الزَّهْوُ والإعْجَابُ، وتَطَلَّقَتْ أَساريرُهُ (تَهَلَّـلَ وانْفرَجَتْ تَجاعِيدُهُ) بَهْجَةً وحُبورًا بِمَا سَـمِعَ، وأثْنَى عَلَى بِنتِه «رِيجانَ» أَحْسَـنَ الثَّناءِ، وشَـكَرَ لها هذا الإخلاصَ النَّادِرَ، وأكْبَرَ فِيهَا وَفاءَهَا العجيبَ، ثُمَّ قالَ لَهَا:

«لَـكِ مِنِّـي ـ أَيَّتُها البنتُ البارَّةُ ـ ثُلُثُ مُلْكِي. فَاهْنَئِي به؛ فأَنتِ بهذهِ الْمُكافأَةِ جَدِيرةٌ».

وَأكْبَرَ الْمَلِكُ ذَلِكَ الْحُنُوَّ، واشْـتَدَّ إِعْجَابُهُ بِمَا سَمِعَ، وشَكَرَ لابْنَتَيْهِ هذا الْحُبَّ النَّادِرَ، والوفاءَ العجيبَ.

٥ ـ حديثُ «كُرْدِلْيا»

ثُمَّ التفتَ الْملكُ «لِير» إلى فتَاتِهِ الصُّغْرَى «كُرْدِلْيا»، وقال لَهَا:

«لقـد جَـاءَ دَوْرُكِ ـ يا نُـورَ قَلْبِي ـ ولَسْـتُ أَشُـكُّ في أَنَّ حُبَّكِ إِيَّايَ أَعْظَمُ مـنْ حُبِّ أُخْتَيْكِ. وقَدِ ادَّخَرْتُ (احْتَفَظْـتُ) لَكِ ثُلُثَ الْمُلْكِ، وَهُوَ أَخْصَبُ بُقْعَةٍ في مَمْلَكَتِي وَأَغْنَاهَا؛ فَحَدِّثِينِي بِمِقْدَارِ ما تُضْمِرينَهُ لِي (مَا تُخْفِينَهُ فِي ضَمِيرِكِ) من حُبٍّ وَوَلاءٍ».

فقالَتْ لَهُ «كُرْدِلْيَا»:

«ليس لَدَيَّ ما أُحدِّثُكَ بِهِ، يا أَبَتاهُ!».

فَقَالَ لَهَا مَدْهُوشًا:

«ماذا تَقُولِينَ؟ أَليْسَ لَدَيْكِ ما تُحَدِّثِينَني بِهِ؟!».

فقالَتْ لَهُ «كُرْدِلْيا»:

«لا شَيءَ عِنْدِي، يا أبتاهُ».

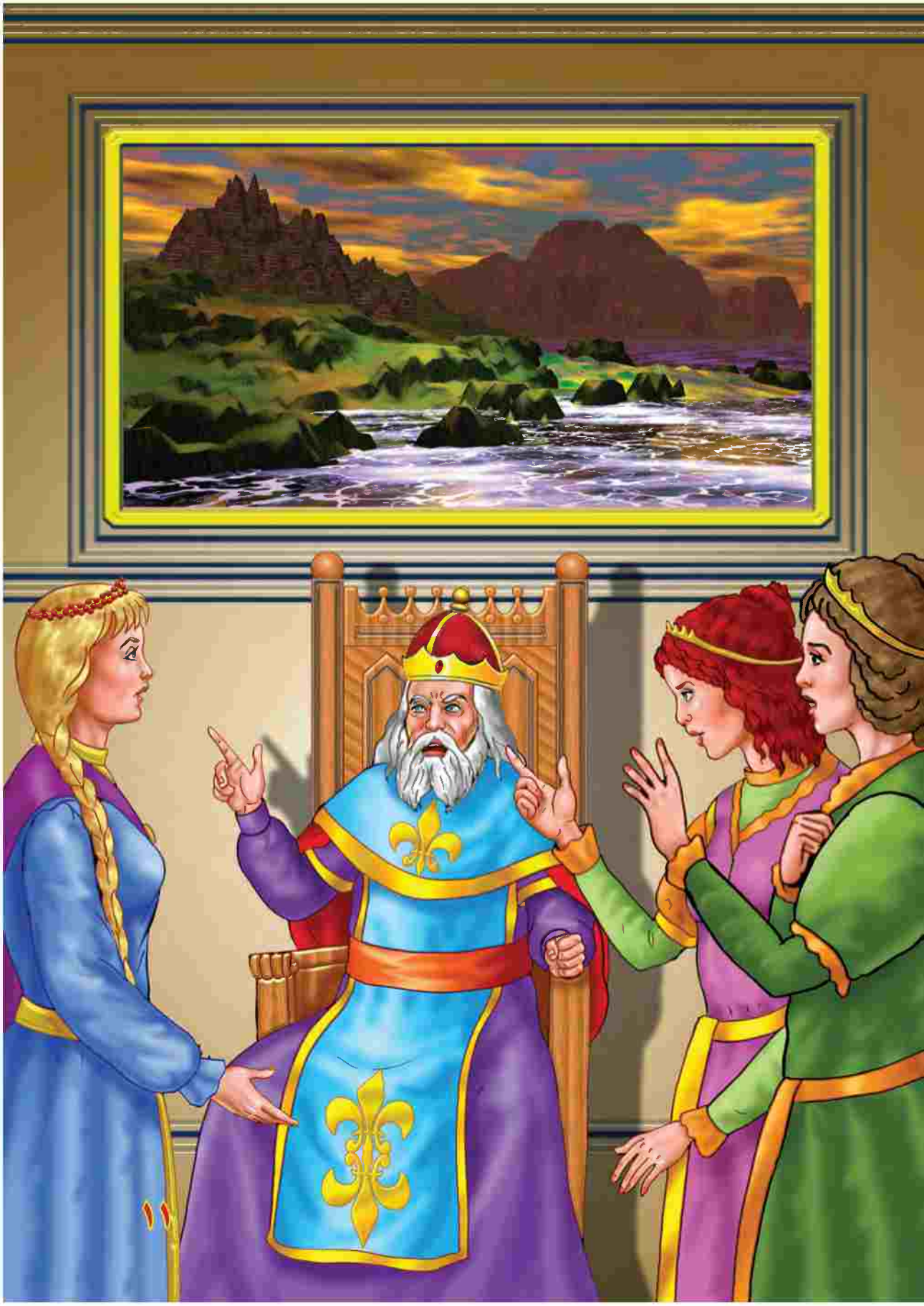

فقالَ لها الْمَلِكُ «لير»:

«كأَنَّكِ لا تُحبِّينَنِي أَيَّتُهَا الفَتاةُ! أَعِيدِي عَلَى مِسْمَعَيَّ جَوابَكِ الأَخِيرَ».

فقالَتْ «كُرْدِلْيا»:

«إِنِّي أُحِبُّ جَلالَتَكَ بِمِقْدَارِ ما يَحْتِمُهُ عَلَيَّ الواجِبُ الأَبَوِيُّ، لا أَكْثَرَ، ولا أَقَلَّ».

٦ ـ نُبْلُ «كُرْدِلْيا»

وإِنَّمَا قالتْ «كُرْدِلْيا» ذلك، ولَم تَصُغْ لأَبِيهَا عِباراتِ المديحِ والثَّنَاءِ الخَلَّابَةَ ـ كما فَعَلَتْ أُخْتَاهَا منْ قَبلُ ـ لأَنَّهَا أَنِفَتْ (كَرِهَتْ) أن تَسْلُكَ مسالِكَ الرِّياءِ، وَسَمَتْ بِنَفْسِهَا عَنْ أَنْ تَكُونَ مُخادِعَةً مُمَلِّقَةً (تقُول بلسانِها مَا لَيْسَ في قلبِهَا).

وكانَتْ عَلَى يَقِينٍ مِنْ لُؤْمِ أُخْتَيْهَا وخُبْثِ طَوِيَّتِهِمَا (نِيَّتِهِمَا)؛ فاحتَقَرَتْ منْهُمَا ذلك الثَّناءَ الزَّائِفَ، الَّذِي نَطَقَتَا بِهِ، لِتَخْدَعا أباهُما عن حَقيقَةِ نَفْسَيْهِمَا؛ رَغْبَةً في أَنْ تَظْفَرَا بِمُلْكِهِ الْعَظِيمِ.

وكانَتْ «كُرْدِلْيا» عارِفَةً أَنَّ أُخْتَيْهَا تَنْوِيَانِ الغَدْرَ بأبِيهِمَا الشَّيْخِ، وأَنَّهُمَا لا تَمْحَضَانِهِ الوُدَّ (لا تُضْمِرانِ لَهُ صادِقَ المَوَدَّةِ)، وَلَا تُؤَدِّيانِ

له شَـيئًا مِنْ واجِبَـاتِ الأُبُوَّةِ عَلَيْهِمَـا، وَإِنْ كانَتَا قَـدْ أَغْرَقَتاهُ بعباراتِ الْمَديـحِ والثنـاءِ الَّتِـي لا طائِلَ تَحْتَهـا (لا فائِـدَةَ مِنْها)، لِتَظْهَـرَا بِغيْرِ مَخْبَرِهِما (باطِنِهِمَا) الحقِيقِيِّ.

ثُمَّ قَالَتْ «كُرْدِلْيَا» مُسْتَأْنِفةً:

«مـا أَنَا إِلَّا بِنْتُكَ .. وقَـدْ أَوْجَدْتَنِي من الْعَـدَمِ، وخَصَصْتَنِي بِحُبِّكَ وعَطْفِكَ. ولَيْس لِي إِلَّا أَنْ أَقْدُرَ ذَلِكَ لَكَ؛ فأُبادِلَكَ حُبًّا بِحُبٍّ، وَعَطْفًا بِرِعَايَـةٍ؛ فـإِنَّ وَاجِبَ أُبُوَّتِكَ يَقْضِي عليَّ أَنْ أَكُـونَ وَفِيَّةً لَكَ، بارَّةً بِكَ، وأَنْ أُطِيعَ أَوامِرَكَ، وأُحِبَّكَ وأُجِلَّكَ الإِجْلالَ كلَّهُ».

٧ ـ غَضَبُ «لِير»

كانَ الْمَلِكُ «لِير» يُفْرِدُ (يَخُصُّ) بِنْتَهُ الصَّغِيرةَ «كُرْدِلْيا» بِحُبٍّ عَظِيمٍ، ويُؤْثِرُهَا (يُفَضِّلُهَا) عَلَى أُخْتَيْها الكُبْرَى والوُسْـطَى، ولا يُطيقُ فِراقَها. وَكَانَ يُرْهِفُ أُذُنَيْهِ لِسَـمَاعِ آيَاتِ الإِعجابِ بِهِ، والثَّناءِ عليْهِ، وَيَحْسَبُهَا مُتفنِّنةً في صَوْغِ عِباراتِ الوَلاءِ (الإِخْلَاصِ)، أكثرَ من أُخْتَيْهَا.

فلمَّا سَمِعَ مِنْهَا ذلِكَ الكلامَ الفاتِرَ، خابَ أَمَلُهُ فِيهَا، وامتلأَتْ نفْسُهُ سُـخْطًا (غَضَبًا) عَلَيْهَـا، وتبرُّمًا (تَضَجُّرًا) بِهَا؛ لأَنَّهُ ظَـنَّ أَنَّ حُبَّهَا إِيَّاهُ أَقَلُّ مِنْ حُبِّ أُخْتَيْهَا.

وَلـوْ عَـرَفَ الْخُبْرَ (لوْ عَلِـمَ الْحَقِيقَةَ)، لأَيْقَـنَ أَنَّ «كُرْدِلْيا» أَخْلَصُ إِنْسَانٍ لَهُ، وأَبَـرُّ ابْنةٍ بِهِ، وأَنَّهَا لَمْ تَشَأْ أَن تَتَّجِرَ بِحُبِّهَا أَبَاهَا، كَمَا فَعَلَتْ أُخْتَاهَا.

ولوْ أَنَّ أَبَاهَا سَـأَلَهَا مِثْلَ هَذَا السُّؤَالِ، فِي غَيْرِ هَذَا الوقتِ، لأَفْضَتْ إليهِ (صَرَّحَتْ لهُ) بما تُضْمِرُ له من وَفاءٍ وبِرٍّ لا مَثِيلَ لَهُمَا.

أَمَـا وقدْ سَـأَلَهَا فِي ذَلِـكَ الوَقْتِ الَّذِي يَقْسِـمُ فِيـهِ مِيراثَهُ بَيْـنَ بَناتِهِ الثَّـلَاثِ، وَرَأَتْ مِـنْ رِيَاءِ أُخْتَيْهَا مَا رَأَتْ؛ فقد سَـمَتْ بِها عِزَّةُ نَفْسِـهَا وأَبَى لَهَا إِبَاؤُها وسُمُوُّ أَخْلاقِهَا أَنْ تُجَارِيَهُما في هذا التَّمْلِيقِ، وتَنْدَفِعَ مَعَهُمَا في ذلِكَ التَّلْفِيقِ.

أَمَّا أَبُوهَا «لِير»، فَقَدْ أَنْسَتْهُ الشَّيْخُوخَةُ واجِبَاتِ الْحَزْمِ، وَدفَعَهُ الْهُتْرُ (ضَعْـفُ العَقْلِ) إِلَى سُـوءِ الرَّأْيِ، وخَطَلِ التَّقْدِيـرِ (خَطَئِهِ)؛ فلَمْ يَرَ في كَلَامِ «كُرْدِلْيا» إِلَّا زَهْوًا وكِبْرًا وتَعالِيًا وغَطْرَسَـةً. وَمَا هُوَ ـ مِنْ شَيْءٍ ـ مِنْ هَذِهِ المَعَانِي بِسَبِيلٍ.

وَتَمَـادَى (اسْـتَمَرَّ) «لِير» في غَضَبِهِ، وَأَسْـلَمَ لِسُـخْطِهِ العِنَانَ (تَرَكَ لِغَضَبِهِ الزِّمَـامَ)؛ فانْتَهَرَ «كُرْدِلْيا» (زَجَرَهَا)، وَأَمَرَهَا بالاسْـتِخْفَاءِ عَنْ ناظِرَيْهِ في الحَالِ، ثمَّ قَسَـمَ الثُّلُثَ الباقِيَ مِنْ مُلْكِهِ ـ الَّذِي كانَ يَدَّخِرُهُ لَهَا ـ بيْنَ أُخْتَيْهَا الغادِرَتَيْنِ.

٨ـ مِهْرَجَانُ المَلِكِ

وَأَقَامَ المَلِكُ «لِير» مِهْرَجانًا عَظِيمًا، جَمَعَ فِيهِ سَرَاةَ الدَّوْلَةِ وَأَعْيَانَهَا، وأَعْلَنَ أَمَامَهُمْ مَا قَرَّرَهُ واشْتَرَطَهُ. وَلَمْ يَحْتَفِظْ لِنَفْسِهِ بِشَيْءٍ مِنَ المَظَاهِرِ إِلَّا بلَقَبِ الْمَلِكِ، وبِمِائَةِ فارِسٍ يكونونَ له حاشِيَةً، على أنْ يَنْزِلَ ضَيْفًا على إِحْدَى بِنْتَيْهِ شَهْرًا، ثُمَّ يَقْضِيَ الشَّهْرَ التَّالي في قَصْرِ الثَّانِيَةِ، ثُمَّ يُقِيمَ ـ في الشَّهْرِ الثَّالِثِ ـ في قَصْرِ الأُولَى، فإذا جاءَ الشَّهْرُ الرَّابِعُ عَادَ إِلَى الأخرَى، وهكذا حَتَّى يَنْتَهِيَ أَجَلُهُ.

وقَدْ عَجِبَتِ الْحَاشِيَةُ مِنْ هَذَا الْقَرَارِ وَدَهِشُوا لَهُ. ولَكِنَّهُمْ لَمْ يَجْرُءُوا عَلَى مُخَالَفَتِهِ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ كائِنٌ كانَ أن يُعارِضَ المَلِكَ في رَأيِهِ، ما خَلَا وزيرَهُ الحَكِيمَ الرَّاشِدَ «كَنْت»، الَّذِي أَقْدَمَ عَلَى النُّصْحِ لَهُ بالإِقْلاعِ عَنْ فِكْرَتِهِ الخَاطِئَةِ (تَرْكِهَا)؛ فكانَ نَصيبَهُ ـ على صِدْقِ نَصيحَتِهِ ـ التَّهْدِيدُ والوَعيدُ! فَلَمْ يَخْشَ الوزيرُ النَّاصِحُ تَهْدِيدَ الشَّيْخِ «لِير»، ولم يَخَفْ وَعيدَهُ.

فاغْتَاظَ الشَّيْخُ «لِير» وَجَعَلَ يَقُولُ لهُ:

«إِنَّ القَوْسَ مُحْضَرَةٌ، وقَدْ أُعِدَّ فِيهَا السَّهْمُ. وَمَا هِيَ إِلَّا لَحْظَةٌ حَتَّى يَنْطَلِقَ السَّهْمُ القاتِلُ مِنْهَا. فَاحْذَرْ أَنْ تَكُونَ هَدَفًا لَهُ فتَهْلِكَ».

ثمَّ أَنْشَدَ، يُنْذِرُهُ ويَتَوَعَّدُهُ:

«انْحَنَتِ القَـوْسُ، وَكَادَتْ تَرْمِي
وَفُـوِّقَ السَّـهْمُ، وَكادَ يُصْمِـي
فَـلَا أَجِـدْكَ هَدَفًـا لِسَـهْمِي».

فأَجَابَهُ الْوَزِيرُ الشُّجَاعُ:

«إِذَا انْدَفَـعَ سَـهْمُ الْمَـوْتِ إِلَى قَلْبِـي فَمَزَّقَهُ، فَإِنِّي لا أَخْشَـى شَـيْئًا. وَلْتَفْعَلْ بِي أَقْدارُ الدَّهْرِ وأَحْوالُ الزَّمَنِ مَا تَشَاءُ».

ثُمَّ أَنْشَدَ :

«إِنْ يَنْطَلِقْ سَهْمُ الرَّدَى مِنَ الوَتَرْ
إلى فُـؤَادِي مُصْمِيًـا، فَيَنْفَطِـرْ
فَلَسْـتُ هَيَّابًا تَصَارِيـفَ الْقَدَرْ».

فَصَاحَ فِيهِ الشَّيْخُ «لِير»:

«وَيْلَكَ أَيُّهَا الْغَبِيُّ. أَلَا تُقلِعُ عن لَجاجَتِكَ وعِنادِكَ؟!».

فأجابَـهُ الوَزِيرُ مَحْزُونًـا يُحَذِّرُهُ عَاقِبَـةَ أَمْرِهِ، وَيُظْهِـرُهُ عَلَى هَوْلِ ما يَعْتَزِمُ إِنْفَاذَهُ:

«إِنَّك تَرْمِي نَفْسَـكَ فِي حُفْرَةِ الظُّلْـمِ والاعْتِدَاءِ! فَعلَى مَهلِكَ؛ إِنَّ ما تَفْعَلُهُ شَيْءٌ عَظِيمٌ، وإِنَّ الظُّلْمَ آخِرَتُهُ سَيِّئَةٌ، وخَطَرُهُ جَسِيمٌ».

ثُمَّ أَنْشَدَ :

«في وَهْـدَةِ الْبَغْـيِ أَراكَ تَنْحَـدِرْ
فـلا تُسـارِعْ؛ إنَّهـا إحْـدَى الكُبَـرْ
إنَّ طَرِيـقَ الْبَغْـيِ مَخْشِـيُّ الْخَطَرْ».

فَاشْـتَدَّ غَضَبُ الْمَلِكِ وسُـخْطُهُ عَلَى وَزِيرِهِ، وأَمَـرَ بطَرْدِهِ وَنَفْيِهِ من المدينةِ، وتَوَعَّدَهُ بالقَتْلِ إذا بَقِيَ في مَمْلَكَتِهِ بَعْدَ اليَوْمِ.

فقالَ الوَزيرُ:

«إنِّي أَخْلَصْتُ لَكَ في نَصِيحَتِي؛ فَلْتَتَّعِظْ بِما أقولُ. والنُّصْحُ أَثْمَنُ ما يُحْفَظُ، وهُوَ دَليلٌ على الْوَفاءِ والإِخْلاصِ في أَوْقَاتِ الشِّـدَّةِ وَحوادِثِ الزَّمنِ».

ثُمَّ أَنْشَدَ:

«مَحَضْتُكَ النُّصْحَ؛ فَحاذِرْ، واعْتَبِرْ
واعْلَـمْ بـأنَّ النُّصْـحَ أَغْـلَى مُدَّخَـرْ
مِن صـادِقِ الـوُدِّ، إذَا الدَّهْرُ غَدَرْ».

ثُمَّ خَرَجَ مَحْزُونًا مَقْهُورًا، وقد أَدْرَكَ أنَّ آخِرَةَ مَلِيكِهِ قد قَرُبَتْ، وأنَّ مَصْرَعَهُ وَشِيكٌ (هَلَاكَهُ مُسْرِعٌ إليْهِ).

٩ ـ وَدَاعُ «كُرْدِلْيَا»

قُلْنَا ـ آنِفًا ـ إنَّ خَاطِبَيْنِ قد جَاءَا يَرْغبَانِ في الزَّوَاجِ بالأَمِيرَةِ «كُرْدِلْيَا»، وهما مَلِكُ «فَرَنْسَا»، وأَحَدُ أُمَرَاءِ «إنجِلْتِرَا».

فأمَّا الأَميرُ الْإِنْجِليزِيُّ، فقد كَفَّ (امتنَعَ) عن طلبِ الزواجِ بالْأَميرةِ «كُرْدِلْيا»، بَعْدَ أَنْ فَقَدَتْ حقَّها في مِيراثِ أبيهَا.

وهُنالِـكَ تَوَجَّهَ مَلِكُ «فَرَنْسـا» إِلَى الأميـرةِ «كُرْدِلْيا»، وأصرَّ (عَزَمَ) على الزَّواجِ بِهَا، بَعْدَ أن خَذَلَهَا أَبُوهَا وَخَطِيبُهَا الآخَرُ.

وقد أُعْجِبَ مَلِكُ «فَرَنْسَا» بِصَرَاحَةِ «كُرْدِلْيَا»، وأَكْبَرَ فِيهَا العِزَّةَ الَّتِي أظْهَرَتْهَـا في تِلْكَ السَّـاعَةِ، إِذْ رَضِيَتْ بالنُّزولِ عَـنْ نَصِيبِهَا في المُلْكِ، ورأَتْ أَنْ تَخْـرُجَ مِـنَ الدُّنْيَـا فَقِيـرَةً مُعْدِمَـةً (لا تَمْلِكُ شَـيْئًا)، مُؤْثِرَةً (مُفَضِّلَـةً) ذلكَ عَلَى أنْ تَتَّجِرَ بِحُبِّ أَبِيهَا، وتَتَّخِذَهُ سُـلَّمًا إلى مُشـارَكَةِ أُخْتَيْهَا في الْمِيرَاثِ.

وَبَعْدَ زَمَنٍ قَصِيرٍ رَأَى مَلِكُ «فَرَنْسَـا» أَنْ يَعودَ بِزَوْجَتِه «كُرْدِلْيا» إلى وَطَنِهِ، فاسْتَأْذَنَتْهُ في وَدَاعِ أُخْتَيْهَا. وَقَدْ فارَقَتْهُمَا دامِعَةَ العَيْنِ، مَحْزُونَةَ القَلْـبِ، وَأَوْصَتْهُمَا خَيْرًا بأبِيهِمَا. فأَغْلَظَتَا لَها الْقَوْلَ، وخاشَـنَتَاها في الْحَدِيثِ (اشْتَدَّتْ كُلٌّ مِنهُما عَلَيْهَا في الْكَلامِ)، وَقَالَتَا لَها ساخِرَتَيْنِ:

«لَسْـنَا في حَاجَـةٍ إِلى تَوصِيَتِك؛ فَلَسْـتِ بِأَبَـرَّ مِنْ كِلْتَيْنَا بِـهِ، وما هُوَ بِأَكْرَمَ عَلَيْكِ مِنْهُ عَلَيْنَا».

أَمَّا أَبُوها الْمَلِكُ «لِير»، فَقَدْ قَالَ لِزَوْجِهَا غاضِبًا:

«اذْهَبْ بِها إلى حَيثُ شِئْتَ؛ فَمَا أُطِيقُ رُؤْيَةَ وَجْهِهَا بَعْدَ الآنَ».

فقالَ لَهُ مَلِكُ «فَرنْسا»:

«لِيَكُنْ ما تَشَاءُ. فَوَدَاعًا».

ثُمَّ سَـافَرَتْ «كُرْدِلْيا» صُغْرَى بَناتِ الشـيخِ «لِير» مَعَ زَوْجِهَا مَلِكِ «فَرَنْسَـا» إلى وَطَنِهِ، حَيْثُ اتَّخَذَتْهُ لَهَا مُقامًا (مكانًا تُقِيمُ فِيهِ) بَعْدَ ذلكَ الْيَوْمِ.

الفَصْلُ الثَّاني

١ ـ في قَصْرِ «جُنْريلَ»

هَـدأَتْ ثائـرةُ الْمَلِكِ «لِير» بَعْـدَ أَنْ أَقْصَـى (أَبْعَدَ) بِنتَـهُ المُخْلِصَةَ الوفِيَّةَ «كُردِلْيا» عَنْ مَمْلكَتِه، وَهُوَ يَحْسَـبُها مِثالَ الْعُقوقِ (عَدَمِ الْقِيامِ بالْواجِبِ نَحْوَ أَبِيهَا) والْغَدْرِ والكِبْرِيَاءِ.

وذَهَـبَ الْمَلِكُ عَـلَى الْفَوْرِ إلى قَصـرِ بنتِهِ «جُنْرِيـلَ»، ولكِنَّه ما عَتَّمَ (ما لَبِثَ) أنْ أَدْرَكَ حَقائِقَ الأَشْـياءِ الَّتي كانَ الرِّياءُ والنِّفاقُ يَسْـتُرانِها عَـنْ ناظِرَيْـهِ، ويَحْجُبَانِهَا عَنْ عَيْنَيْـهِ. وَعرَفَ أنَّ الأَلْفَاظَ المَعْسُـولَةَ، والمَدَائِحَ المُنَمَّقَةَ (الْمُزَخْرَفَةَ) الزَّائِفَةَ، لا تُغْنِي عَنِ الْحَقِّ شَيئًا.

لَقَدْ تَمَلَّكَتِ البِلادَ ـ بَعْدَ أبِيهَا ـ وَظَفِرَتْ (فَازَتْ) بِكلِّ ما مَنَحَهَا إيَّاهُ من سُـلْطَانٍ وَقُوَّةٍ، واستَتَبَّ (اسْـتَقَرَّ) لَهَا الْمُلْكُ؛ فَكَانَ أَوَّلَ همِّهَا أنْ تَتَنَكَّرَ (تتغيَّر) لِمَنْ أَحْسَـنَ إلَيْهَا، وتَجْزِيَه على صَنيعِهِ الْمَشْـكورِ أَقْبَحَ جَزاءٍ، وتُكَافِئَهُ إساءَةً بإِحْسانٍ، وعُقُوقًا بِبِرٍّ، وغَدْرًا بِوَفَاءٍ!

٢ ـ خُبْثُ «جُنريلَ»

ورأَتْ «جُنْريـلُ» أنَّ أَبَاهَا قد أصبْحَ ـ بَعْدَ أيَّامٍ قَليلةٍ ـ مُملًّا ثَقِيلًا لا يُطَاقُ، واسْتكْثَرَتْ عَليهِ مِائَةَ الفارسِ الَّذِين اسْتَبْقاهُم لِنفْسِهِ، ليُرافقوهُ في حَلِّهِ وتَرْحالِهِ (في إقامَتِه وسَفَرِهِ).

وأصْبَحَـتْ «جُنرِيـلُ» تَلْقَى أبَاهَـا ـ كُلَّمَا وقَعَ نظرُهـا عليه ـ بوَجْهٍ عَبُوسٍ، وَتَقْطِبُ حاجبَيْهَا (تَعْبِسُ) كُلَّما ناداها، ولا تُلَبِّي (لا تُجِيبُ) لهُ رَجاءً، ولا تُنَفِّذُ له مَشِيئةً.

واقْتَـدَى بِهَـا خَدَمُها في مُعَامَلَةِ هذا الشَّـيْخِ؛ فأصْبَحـوا لا يُلَبُّونَ لَهُ أمرًا، ولا يُعَامِلونَهُ بِغَيْرِ الإهمالِ والاحْتِقَارِ وقِلَّةِ الاكتِرَاثِ.

٣ ـ وَفاءُ الوَزِيرِ

أمَّـا الوزيرُ الـوفيُّ «كَنْت» الَّذِي طَرَدهُ الشَّـيخُ «لِيـر» مُكافأةً له على صِدْقِ وَفائِهِ، وأمَرَ بنَفْيِهِ من مَدينَتِهِ، فَقَدْ أبَى عَلَيْهِ إخْلاصُهُ لِمَلِيكِهِ أن يَتْرُكَهُ نَهْبَ المَصَائِبِ والأحْداثِ (تَنْهَبُهُ وتَفْتَرِسُـهُ)، ونُهْزَةَ الْخُطُوبِ والكوارِثِ (فُرْصةً للبَلايَا والنَّكَباتِ). فلم يَخْرُجْ من المَدِينةِ؛ ولكنَّهُ غَيَّـرَ مِن هَيْئَتِه، وبدَّلَ من شـكْلِه، وتَزَيَّا بِزِيِّ الْخَدَمِ، ثم عادَ إلى مَليكِهِ

خادِمًا أمينًا يَرْعاهُ ويَحْرسُهُ، ويَرْقُبُهُ عَنْ كَثَبٍ (عَنْ قُرْبٍ).

ورَضِيَ الملكُ «لِير» بهذا الخادِمِ الْجَديدِ، وهو لا يعرفُهُ. ولم ينقَضِ عَلَى عوْدتِهِ إلى مليكِهِ يومٌ كاملٌ، حتَّى رَأى خادمًا مِن خَدَمِ «جُنريلَ» يُجادِلُ المَلِكَ «لير»، ويَسْتهينُ به، لِيُرْضِيَ بذلك سَيِّدتَهُ «جُنْرِيل».

فغَضِبَ الوزيرُ، ولم يَحْتَمِلْ وَقاحةَ ذلك الخادمِ الجريءِ، وثارَتْ ثائِرتُهُ (غَضِبَ) عَليهِ، فَصَفَعَهُ (ضرَبَهُ) صَفْعَةً كادَتْ تُذْهِلُه (تُذْهِبُ عَقْلَهُ) وتُرْدِيه (تُهْلِكُه)؛ جزاءً لهُ على سَفاهَتِه وتَطاوُلِهِ على سَيِّدِهِ. فابْتَهَجَ المَلِكُ «لير» بِوفاءِ هذا الخادمِ الْجَدِيدِ وإخْلاصِهِ، وهُوَ لا يَعْرِفُ أنَّهُ وزيرُه النَّاصِحُ «كَنْت» الَّذِي لم يألُ (لَم يُبْقِ) جُهدًا في تَحْذيرِهِ عَواقِبَ التَّسَرُّعِ والبَغْيِ.

٤ـ «البُهْلُولُ»

ولَقَدْ تَفرَّقَ أصْحَابُ «لِير» بَعْدَ أن زَالَ عَنْهُ سُلْطانُهُ، ودالَتْ دَوْلتُه (انْقَلَبتْ رأْسًا عَلَى عَقِبٍ). ولَمْ يَبْقَ إلى جانِبِهِ ـ بَعْدَ وزيرِهِ الأَمينِ ـ غيْرُ نَديمِهِ الَّذِي كانَ يُلَقِّبُهُ مَرَّةً بالبُهْلُولِ؛ لِخِفَّتِهِ ودُعابَتِهِ (ظَرفِهِ وفُكاهَتِهِ)، كما يُلَقِّبُهُ ـ مَرَّةً أُخْرَى ـ بالْمَجْنُونِ؛ لِمَا اعْتَادَهُ مِنْ خَلْطِ الْجِدِّ بالْهَزْلِ

والْمُجُونِ (عَدَمِ المُبَالاةِ)، وإلْباسِ الْحقيقَةِ ثَوْبَ الْباطِلِ.

وكانَ «البُهْلُـولُ» يُحـاوِلُ جاهـدًا أنْ يُدْخِلَ السُّـرورَ والْبَهْجَةَ على نَفْسِ مَليكِهِ، ويَتَفنَّنُ في تَسْلِيَتِهِ بِكُلِّ وَسِيلةٍ.

٥ ـ ذَكاءُ «الْبُهْلُولِ»

وكانَ «الْبُهْلُـولُ» يُحَاوِلُ أنْ يُبَصِّرَ «لِيـرَ» بعَاقِبَةِ ما فَعَلَ. وقدْ أدْرَكَ ـ بِثاقِـبِ بَصَرِهِ (بِنَظَرِهِ النَّافِذِ) ـ ما تُدَبِّرُهُ «جُنْرِيلُ» لأَبِيهَا مِنَ الْمَكَايِدِ، وعَرَفَ أنَّهَا تَوَدُّ جاهِدَةً أَنْ تَتَخَلَّصَ مِنْهُ.

وَقَـدْ عَلِمَ «البُهْلـولُ» أَنَّ «جُنْريلَ» لَنْ تَغْفِرَ لأَبيهـا وخادِمِهِ ما لَقِيَهُ منْهما خادِمُهَا، وهي الَّتي أَوْعَزَتْ (أشـارَتْ) إليهِ ـ كما أسْـلَفْنا ـ بِأَنْ يَعْصِيَ أَمْرَ أبِيها، ولا يُلَبِّيَ له طَلَبًا.

٦ ـ قِصَّةُ العُصْفُورِ والغُرابِ

فدَخَلَ «البُهْلولُ» يُغَنِّي مُداعِبًا (مُمازِحًا) سَـيِّدَهُ، مُتَوَخِّيًا (قاصِدًا) أنْ يُنْذِرَهُ بالْكارِثَةِ قَبْلَ وُقُوعِها؛ حتَّى لا يُفاجَأَ بِهَا، وكان يُلَمِّحُ له بِما يُريدُ، ويقُول:

«أخْبَرَتْنا القِصَصُ الَّتي نقلَتْها إلَيْنا العُصُورُ الْماضِيَةُ أَنَّ عُصْفُورًا أَبْصَرَ غُرابًا وَليدًا في عُشِّهِ، يَكادُ يَهْلِكُ؛ فَقرَّبَ منهُ ما يَبْعَثُ في جِسْمِهِ الدِّفْءَ، وَسَقاهُ ما يَشْفِيهِ، فَلمَّا نَشِطَ الغُرابُ الصَّغِيرُ، وتَقَدَّمَتْ به الأَيَّامُ، وبَلَغَ مَبْلَغَ الشَّبابِ، دَفَعَتْهُ نَفْسُهُ الشِّرِّيرَةُ إِلَى أنْ يَقْتُلَ العُصْفُورَ الَّذِي قَدَّمَ لهُ فَضْلًا، وأَسْدَى إليْه جَمِيلًا؛ وذلك سُوءُ الْجَزاءِ».

ثُمَّ يُنْشِدُ:

«قدْ حَدَّثَتْنا أَصْدَقُ الأَمْثالِ ... فيما مَضَى مِنَ الزَّمانِ الْخالي

بِقِصَّةٍ تُرْوَى عَنِ الْعُصْفُورِ ... أَبْصَرَ ـ في وَكْرٍ مِنَ الوُكورِ ـ

فَرْخَ غُرابٍ مُشْرِفًا عَلَى التَّلَفْ ... فقالَ لِلْفَرْخِ: اطْمَئِنَّ، لا تَخَفْ

وَأَدْفأَ الفَرْخَ، وَداواهُ، ولَمْ ... يَزَلْ بِهِ حتَّى شَفاهُ من أَلَمْ

وكَانَ عِنْدَهُ العزِيزَ الْغالي ... وَأَكْرَمَ الأَبْناءِ والعِيالِ

حَتَّى إِذا الْفَرْخُ غَدا غُرابَا ... لَمْ يَرَ ـ غَيْرَ قَتْلِه ـ ثَوابَا

وأَهْلَكَ الْغُرابُ مَنْ رَبَّاهُ ... جَزاءَ ما قَدَّمَ مِنْ حُسْناهُ».

فَصَيَّحَ «لِيرُ» مُتعَجِّبًا:

«وماذا تَعْنِي بهذِه القِصَّةِ، يا «بُهْلُول»؟».

فَأَجابَهُ ضاحِكًا:

«أَراكَ ـ يا عَمِّ ـ فَعلْتَ فِعْلَهُ ... وسوْفَ تُجْزَى في الْحياةِ مِثْلَهُ

أنتَ شَبِيهُ ذلكَ الْعُصْفُورِ».

فصَـرَخَ «لِيرُ» يتوَعَّـدُهُ بالْوَيْـلِ (الْعَـذَابِ والْهَـلَاكِ) إذا تَمادَى في دُعابَتِهِ (مُزاحِهِ).

فقال «البُهْلولُ» ضاحِكًا:

«أُعْطِيكَ ـ إنْ كَذَّبْتَنِي ـ طُرْطُورِي!».

٧ ـ حاشِيَةُ الْمَلِكِ

وَمَا أَسْـرَعَ ما تَحَقَّقَتْ فِراسَةُ «البُهْلُولِ»؛ فإنَّ «جُنْرِيلَ» تلكَ الْبِنْتَ الْخَبِيثَةَ الْعاقَّةَ (الَّتي لَمْ تُراعِ حَقَّ الأُبُوَّةِ)، لَمْ تَشَأْ أن تَتْرُكَ أَبَاهَا يَقْضِي بَقِيَّةَ حَياتِهِ وادِعًا هانئًا مُسْتَرِيحَ الْقَلْبِ، وأَبَى عليْها خُبْثُها ولُؤْمُ طَبْعِها إلَّا أن تُنَغِّصَ عليْه عَيْشَهُ، وتُكَدِّرَ عليهِ صَفْوَ حَياتِهِ، وَقدِ اسْتَدْعَتْهُ إليْها بَعْدَ أَيَّامٍ قليلةٍ، ثُم قالتْ له:

«لَقد مَلأَتْ حاشِيتُك ـ لِكَثْرَةِ عَدَدِها ـ قَصْرِي، وأَصْبَحْتُ لا أُطيقُ جَلَبَتَهُمْ وضَوْضاءَهُم (أَصْواتَهُمُ العَالِيَةَ) بعدَ هذا اليومِ. وأَراكَ جَديرًا أَنْ تَتخيَّـرَ نُخْبَةً (خُلاصَـةً) قَلِيلَةً ـ على نَصِّ سِـنِّكَ (في مِثْلِ عُمْرِكَ) ـ لِمُرافقَتِكَ إنْ شِئْتَ».

٨ـ دَعْوَةُ «لِير»

فغَضِبَ المَلِكُ «لِير» مِمَّا قالَتْهُ بِنْتُهُ، وقَالَ لَهَا:

«إنَّ حاشِيَتِي جَمِيعًا مِن خِيرَةِ النَّاسِ أدَبًا ومَعْرِفةً، ولَيْسَ في اسْتطاعَةِ أحدٍ أنْ يَتَّهِمَهُمْ بِمِثْلِ هذهِ التُّهمَةِ الكاذبةِ».

ثمَّ أمرَ الملكُ باسْتِدْعاءِ جيادِه (خَيْلِه) وإسْراجِها، مُعْتَزِمًا أنْ يُغادِرَ بِنْتَهُ على الفَوْرِ، والْتَفَتَ إليْهَا عابِسًا، وقال:

«لَـمْ يَبْقَ في مَقْـدُورِي أن أصْبِرَ على هـذا التَّجَنِّي (ادِّعـاءِ التُّهَمِ) يا «جُنْرِيـل». وإنِّي لأَحْمَـدُ اللهَ عـلى أنْ رزَقَنـي بِنْتًا أُخْرَى غَيْـرَكِ، تُكْرِمُ وِفـادَتي (قُدُومِي عليْها)، وتَقْدُرُ أُبُوَّتي لَها، وتَعْرِفُ من حقِّي عليْها ما أنكَرْتِهِ أنْتِ، أَيَّتُهَا الْعَاقَّةُ الجاحِدَةُ».

ثُـمَّ دَعَـا عَلَى بِنْتِـه «جُنْرِيـلَ» أن يُصِيبَهـا اللهُ بِالْعُقْمِ؛ فـلا تَلِدَ مَدَى حَياتِها، أوْ يرزُقَها بشَـرِّ الأبنـاءِ؛ لِيَجْزِيَها مِثْلَ هذا الْجَزاءِ الْغادِرِ، وأن تمُوتَ شَرَّ مِيتَةٍ.

٩ـ دُعابَةُ «البُهْلولِ»

وخَشِيَ «الْبُهلولُ» أن يَطْغَى الْحُزْنُ عَلَى قَلْبِ «لِيرَ» فَيُهْلِكَه؛ فَجَرَى ـ عَلَى عادَتِهِ ـ في مُداعَبتِه (مُمازَحَتِه)، وَراح يُغَنِّيهِ مُنْشِدًا:

«يا لَيْتَ لي ـ يا عَمِّ ـ طُرْطُورَيْنِ! أُعْطِيكَ طُرْطُورًا مِنَ الإِثْنَيْنِ
وأَجْعَلُ الآخَرَ نُصْبَ عَيْنِي».

فقالَ:

«وماذا أَصْنَعُ بِطُرْطُورِكَ، يا «بُهْلولُ»؟ ضَعْهُما مَعًا نُصْبَ عَيْنِكَ (أمامَها)!».

فَأجابهُ ضاحِكًا:

«إنَّ بِنْتَيْكَ لا تُعْطِيَانِكَ شيْئًا لوْ طَلَبْتَهُ. وما أَحَقَّكَ بأَنْ تُرَوِّيَ خَدَّيْكَ (تَبُلَّهُمَا) بدَمْعَتَيْنِ؛ جَزاءَ خَطَئِكَ في نُزُولِكَ لهُمَا عَنِ الْمُلْكِ».

ثُمَّ أَنْشَدَهُ:

«اطْلُبْهُ ـ إنْ شِئْتَ ـ مِنَ الْبِنْتَيْنِ! أَلَسْتَ أَسْكَنْتَهُمَا قَصْرَيْنِ؟
أَلَسْتَ أَعْطَيْتَهُمَا تاجَيْنِ؟ ثُمَّ وهَبْتَ الْمُلْكَ ذِئْبَتَيْنِ!
فالْيَوْمَ تَلْقَى أَوَّلَ النِّصْفَيْنِ تُخْلِيكَ مِنْ بَيْتٍ مِنَ الْبَيْتَيْنِ
وفي غَدٍ تَشْقَى بِطَرْدَتَيْنِ جَزاءَ ما أَخْطَأْتَ في حُكْمَيْنِ
إنَّكَ قَدْ خُدِعْتَ خُدْعَتَيْنِ فَرَوِّ خَدَّيْكَ بِدَمْعَتَيْنِ
وابْكِ عَلَى نَفْسِكَ مَرَّتَيْنِ».

فقالَ لهُ «لِيرُ»:

«ما أَصْدَقَ ما تَقولُ، أَيُّهَا الْمَجْنُونُ العاقِلُ! ولكن فاتَ وَقْتُ النَّدَمِ، وَلَيْسَ لنا مِنْ حيلَةٍ في رَدِّ ما فاتَ. عَلَى أَنَّ بِنْتِيَ الثَّانيةَ طيِّبَةُ القَلْبِ، ولَنْ

تَدَّخِرَ (لَنْ تُبْقِيَ) وُسْعًا في إسْعادِي، وتوْفيرِ جالِبَاتِ الْبَهْجَةِ (أسبابِ السُّرُورِ) لي. وسَتُرِيكَ الأيَّامُ صِدْقَ ما أقولُ».

١٠ ـ عِنْدَ «رِيجَانَ»

واعْتَزَمَ الْمَلِكُ «لِير» أن يَقْضِيَ بقيَّةَ عُمُرِه في قَصْرِ بِنْتِهِ الثَّانِيَةِ «رِيجان»؛ فَبَعَثَ إليْهَا رَسولَه الوَزِيرَ «كَنْت» بِكِتَابٍ يُنَبِّئُهَا (يُخْبِرُها) فيه بما اعْتزَمَهُ وقَرَّرَهُ، ويَعِدُها بالذَّهابِ إليْهَا بعْدَ وقْتٍ قَلِيلٍ.

وَلَمْ يَكَدِ الوزيرُ «كَنْت» يَبْلُغُ قصرَ «رِيجانَ»، ويُفْضِي إليْها (يُخْبِرُها) بما لَقِيَهُ أبُوها الشَّيْخُ «لِير» من عُقوقٍ (إنْكارٍ لِحَقِّهِ)، حتَّى جاءَ رسولٌ من أُخْتِهَا «جُنْرِيلَ»، وَأَسْلَمَهَا كِتابَهَا الَّذِي بَعَثَتْ بِهِ إليْهَا، تُوصِيها بأَبِيها شرًّا، وتُوغِرُ صَدْرَها (تُثِيرُ غَضَبَهَا) عليْهِ، وتُدَبِّرُ لَهَا خُطَّةً خَبِيثةً لِلْخلاصِ منهُ ومن أتْباعِهِ وحاشيَتِهِ!!

١١ ـ حَبْسُ الوَزِيرِ

وما أَتَمَّتْ «رِيجانُ» كِتابَ أُخْتِها قِراءَةً حتَّى أَغْلَظَتِ القَوْلَ لِرَسُولِ أبِيهَا. فَلَمَّا حاوَلَ أن يُذَكِّرَهَا بِمَا لأَبِيهَا عليْهَا مِنْ فُرُوضٍ وَحُقُوقٍ، ثارَتْ في وَجْهِهِ مُغْضَبَةً، وَأَمرَتْ بحَبْسِهِ في سِجْنٍ مُظلمٍ، جزاءً لَهُ عَلَى جُرْأَتِه!

١٢ ـ مَقْدَمُ «لِير»

وَبَعْدَ قَليلٍ مِنَ الزَّمَنِ قَدِمَ عَلَيْها الشَّـيْخُ «لِير». وما عَلِمَ أنَّ رَسـولَهُ قد سُجِنَ، وَأَنَّ بِنتَهُ «رِيجانَ» هِيَ الَّتِي أمَرَتْ بِحَبْسِهِ، حَتَّى زادَ هِياجُهُ، واشْتَدَّ غَضَبُهُ عَلَيْهَا.

فقالَتْ لَهُ «ريجانُ»:

«خفِّـفْ مِنْ سُـخْطِكَ ـ أيُّهَا الْوالِدُ الشَّـيْخُ ـ فَمَا أظُـنُّ أنَّ أُخْتِي قَدْ أخْرَجَتْـكَ مِـن قَصْرِهـا إلَّا بَعْـدَ أنْ نَفِدَ صَبْرُهَـا مِنْ لَجاجَـةِ أتْبَاعِكَ (تَخاصُمِهـمْ) وصَخَبِهِمْ (صَيْحَاتِهِم)، وضاقَ ذَرْعُها (ضَجِرَتْ) بِمَا اقْتَرَفُوهُ (ارتكبُوهُ) مِنْ شُرُورٍ وآثامٍ.

وهِيَ ـ بِلا شَكٍّ ـ في سَعَةٍ مِنَ العُذْرِ؛ لأَنَّ قُصُورَ الْمُلُوكِ جَديرَةٌ أنْ تُنَزَّهَ (تُبَـرَّأَ وتُخلَّصَ) من عَبَثِ الْعابِثِينَ، وَلَهْوِ الْهَاذِرِينَ (السَّـاخِرينَ في القَوْلِ).

١٣ ـ حُقُوقُ الوالِدَيْنِ

لَمْ يَسْـتَطِعْ «لِير» أنْ يُصَدِّقَ ما سَـمِعتْهُ أُذُناهُ مِنْ بِنْتِهِ الثَّانِيَةِ، بَعْدَ ما رَآهُ مِـنْ عُقُوقِ بِنْتِهِ الأُولَى؛ فَخُيِّلَ إلَيْهِ أنَّـه حالِمٌ، وكادَ يُغْمَى عَلَيْهِ مِنْ

فَـرْطِ الأَسَـى والْحُزْنِ. ولَكِنَّهُ لَمْ يَـرَ فِي الجَزَعِ (شِـدَّةِ الْحُزْنِ) فائدةً؛ فاعْتَصَمَ بالصَّبْرِ (لَجَأَ إِلَيْهِ) ـ ما وَسِعَهُ حِلْمُهُ ـ وقال لِبِنْتِهِ، وهُوَ يُغَالِبُ الدَّمْعَ جاهِدًا:

«مـا أَظُنُّ أَنَّكِ ـ مَهْمَـا عَقَقْتِ أَباكِ ـ بالغَةٌ بعضَ ما بَلَغَتْهُ أُخْتُكِ من جُحودٍ وَعُقُوقٍ!

وَإِنِّي لأَخَـالُ أَنَّـكِ أَقْرَبُ إِلى البِـرِّ بِأَبِيكِ، وَأَدْنَـى إِلَى الوَفاءِ والْحُنُوِّ عليْهِ، والإِشْفاقِ عَلَى شَـيْخُوختِه. فحاذِرِي أَن تَنْهَجِي نَهْجَ «جُنْرِيلَ» (تَتَّبِعـي طَرِيقَهـا)، فَتُخَيِّبِـي تَأْمِيلَ أَبِيـكِ، وَتَمْلَئِي قَلبَهُ يَأْسًـا؛ بَعْدَ أَنْ وَهَبَ إِلَيْكِ أَثْمَنَ ما يَمْلِكُ، وَلَمْ يَضَنَّ (لَمْ يَبْخَلْ) عَلَيْكِ بأَعَزِّ ما لَدَيْهِ من مُلْكٍ وَجَاهٍ وَمَالٍ».

١٤ ـ مَقْدَمُ «جُنْرِيلَ»

وَمَـا أَتَـمَّ قَوْلَـهُ، حَتَّى قَدِمَـتْ بِنتُهُ «جُنْرِيـلُ»؛ فانْضَمَّـتْ إِلَى أُخْتِهَا «رِيجَـانَ»، وَظَلَّـتْ تُوغِـرُ صَدْرَهَا عَلَى أَبِيهَا الشَّـيْخِ؛ حَتَّى قَسَـا عَلَيْهِ قَلْبُهَا مرَّةً أُخْرَى، وسارَتْ مَعَهَا في الْعقوقِ إِلى أَبْعَدِ مَدًى.

فقالتْ «رِيجانُ»:

«لَقَدِ اسْتَكْثَرْتَ عَلَيْكَ أُخْتِي أَنْ تكونَ حاشِيَتُكَ مُؤَلَّفَةً من خمسينَ فارِسًا. أمَّا أنا، فأَسْتكثِرُ عليكَ نِصْفَ هذا الْعَدَدِ، وأَرَى أن خَمْسَةً وعِشْرِينَ فارسًا كَثِيرٌ عَلَيْكَ. وَما أَدْرِي: ما حاجَةُ مِثْلِكَ ـ أَيُّهَا الشَّيْخُ ـ إلى مِثْلِ هذا الْعَدَدِ منَ الْحُرَّاسِ وَالْجُنْدِ؟ بَلْ ما حاجَتُكَ إلى عَشَرَةِ فُرْسَانٍ؟ بَلْ إِنِّي لأَسْتَكْثِرُ عَلَيْكَ خَمْسَةً!

صَدِّقْنِي إِنَّكَ لَنْ تَحْتَاجَ إلَى فارِسٍ واحِدٍ، فَكَيْفَ بِجَمْعٍ مِنَ الْفُرسانِ؟ إنَّ خَدَمِي لَيُؤَدُّونَ لكَ ـ أَيُّهَا الشَّيْخُ ـ كُلَّ ما تُرِيدُ؛ فَما انتِفاعُ مِثْلِكَ بالحاشِيَةِ؟!».

١٥ـ غَضْبَةُ الشَّيْخِ

وَثَمَّ (هُنَا) أَدْرَكَ الشَّيْخُ «لِير» أَنَّ ابْنَتَهُ الثانِيَةَ لَيْسَتْ أَبَرَّ بِهِ مِنَ الأُولَى؛ فاشْتَدَّ عَلَى بِنْتَيْهِ سُخْطُهُ، وَدَعَا عَلَيْهِمَا جَمِيعًا أَنْ تَلْقَيَا الْجَزَاءَ الْعادِلَ، وَأَنْذَرَهُمَا بِسُوءِ الْمَصِيرِ.

وَلا تَسَلْ عَمَّا اسْتَوْلَى عَلى قَلْبِهِ مِنَ الْيَأْسِ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ مِنْ غَدْرِ بِنْتَيْهِ مَا لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُرَ لهُ عَلَى بَالٍ؛ فَصَاحَ مُتَأَلِّمًا مَحْزُونًا:

«أَخْرِجَا مَعِي رَسُولي وَبُهْلُولي، وَلَنْ تَرَيَاني بَعْدَ الْيَوْمِ!».

الفَصْلُ الثَّالِثُ

١ ـ هُبوبُ الْعَاصِفَةِ

كانَتِ اللَّيْلَةُ عاصِفَةً قارِسَةً (شَدِيدَةَ الْبَرْدِ). وَقَدْ أَدْرَكَ الشَّيْخُ «لِير» أَنَّ بِنْتَيْهِ الْغَادِرَتَيْنِ قَدْ أَسْلَمَتاهُ إِلى تِلْكَ الزَّوابِعِ الثَّائِرَةِ، وَالأَعاصِيرِ الْهائِجَةِ، دُونَ أَنْ تَأْخُذَهُما فِيهِ رَحْمَةٌ؛ فَأَسْلَمَ لِجَوادِهِ الْعِنانَ، وقَدْ كادَ الْيَأْسُ يُذْهِلُهُ، وَبَدا عَلَيْهِ الْخَبالُ (اخْتِلاطُ الْعَقْلِ)؛ فَلَمْ يُبالِ الزَّمْهَرِيرَ (بُلُوغَ الْبَرْدِ أَقْصاهُ)، وَلَمْ يُشْفِقْ عَلَى شَيْخُوخَتِهِ الْمُهَدَّمَةِ، مُؤْثِرًا (مُخْتارًا) أَنْ يُهْلِكَهُ الْبَرْدُ، عَلَى أَنْ تُذِلَّهُ بِنْتاهُ.

وَظَلَّ يُلَوِّحُ بِذِراعَيْهِ فِي الْفَضاءِ كَأَنَّما يَتَوَعَّدُهُما، وَيُمِيلُ رَأْسَهُ إِلى الْخَلْفِ، وَيَصِيحُ مُغْضَبًا حانِقًا، حَتَّى لَيَحْسَبُ مَنْ يَراهُ أَنَّ بِهِ مَسًّا مِنَ الْجُنُونِ. وَلَمْ يَبْقَ مَعَ الشَّيْخِ «لير» ـ فِي مِحْنَتِهِ ـ غَيْرُ صاحِبَيْهِ الْمُخْلِصَيْنِ: «كَنْت» و«الْبُهْلُولُ».

٢ ـ الأَعاصِيرُ والرُّعُودُ

وَاشْتَدَّتِ الزَّوْبَعَةُ عُنْفًا، وَتَحَدَّرَ الْمَطَرُ (سَقَطَ)، ثُمَّ هَمَى (نَزَلَ

بِكَثْـرَةٍ) كأَنَّهُ السَّـيْلُ الْجَارِفُ، وَجَلْجَلَـتِ الرُّعُودُ الْقاصِفَـةُ، وَدَوَّتِ الرِّيَـاحُ الْعاتِيَةُ (الْعَنِيفَةُ)، وَخُيِّلَ إلى النَّاسِ أنَّ الْبَرَاكِينَ انْفَجَرَتْ، وَأنَّ الْكَوَاكِبَ انتَثَرَتْ (تساقَطَتْ)، وأنَّ الْجَحِيمَ سُعِّرَتْ (الْتَهَبَتْ).

وَبَـدَا ذَلِـكَ الشَّـيْخُ الْهِـمُّ (الْهَـرِمُ)، وَقَـدْ قَـفَّ شَـعَرُهُ (وَقَـفَ)، وَتَقَوَّسَ ظَهْرُهُ، وَانْحَنَـتْ قامَتُهُ الْمَدِيدَةُ، بَعْدَ أنْ أَلَحَّتْ عليْهِ جالِباتُ الدَّمارِ (مُسَبِّبَاتُ الْهَلاكِ)، وَعَصَفَتْ بِهِ عاصِفَاتُ الأقْدارِ.

٣ـ نَشِيدُ العاصِفَةِ

وَكانَ الشَّـيْخُ «لِيـر» يَصْـرُخُ مُتَحَدِّيًا هَـذِهِ الْقُـوَى الْعَاتِيَـةَ الْمُتَأَلِّبَةَ (الْمُتَجَمِّعَةَ) عليهِ، مُصَيِّحًا صَيْحاتٍ مُفَزِّعَةً هائِلَةً، وَهُوَ يقُولُ:

«هُبِّي أَيَّتُهَا الرِّيَاحُ الْقاسِيَةُ الْعَنِيفَةُ الَّتِي تُهْلِكُ الْمَدائِنَ، وَتُفْسِدُ الأَرَضِينَ: الْمُنْبَسِطَةَ مِنْهَا، والْمَمْلُوءَةَ أَحْجَارًا ورِمالًا، والَّتِي لا زَرْعَ فيها ولا نباتَ. ثم أَنْزِلِي مَطَرَكِ يُغَطِّي الأَبْنِيَةَ الْعالِيَةَ، وَيُغْرِقُ الْأَراضِيَ الْمَزْرُوعَةَ».

ثُمَّ يُنْشِدُ مُتَوَعِّدًا:

«زَوَابِـعَ الأَمْطَـارِ: هُـبِّي مَـعَ الْإِعْصَارِ
فِي اللَّيْـلِ والنَّهَـارِ عاصِفَـةً مِـنْ نـارِ

مَــرْهُــوبَةَ الدَّمارِ تَــأْتي عَــلَى الْأَمْصَارِ

والسَّهْلِ والقِفَارِ

وَأَمْطــرِي ثُلُــوجَا تُجَــلِّــلُ الْبُرُوجَــا

وَتُغْرِقُ الْمُرُوجَا».

وتَشْتَدُّ الْعَاصِفَةُ هُبُوبًا، وَيَزْأَرُ الرَّعْدُ مُجَلْجِلًا قاصِفًا، ويَبْرُقُ الْبَرْقُ، يكادُ سَنَاهُ (ضَوْءُهُ) يَخْطَفُ الأبْصَارَ، ويُوهِمُ مَنْ يَرَاهُ أنَّ الكُرَةَ الأرْضِيَّةَ تَهْتَزُّ مِنْ أقْطارِها (جَوانِبِها)، وأَنَّ الدُّنْيَا قد زُلزِلَتْ زِلْزَالَها. فَيَشْتَدُّ صِيَاحُ الشَّيْخِ، وَهُوَ يَقُولُ:

«دَوِّي ـ أَيَّتُهَا الرِّيحُ ـ وَعَوِّي، وَدَمِّرِي بَيْتَيَّ وَبِنْتَيَّ، عَنَيْتُ (قَصَدْتُ) الذِّئْبَتَيْنِ. ثُمَّ انْثَنِي (عُودِي) إليَّ، فأَمْطِرِينِي جاحِمَكِ الْعَتِيَّ (نارَكِ الْمُوقَدَةَ)؛ كِفاءَ خَيْبَتَيَّ (عَلَى قَدْرِهِمَا)، في ظَنِّيَ الْحَسَنِ بِهِمَا».

ثُمَّ أنْشدَ:

«يا رِيــحُ: دَوِّي دَوِّي ويا رُعُــودَ الْجَــوِّ:

لا تَهْــدَئِي، وَعَــوِّي وانْــتَزِعِي حُنُــوِّي

وَأَحْــرِقِي عَــدُوِّي

❀❀❀

وَدَمِّــرِي بَيْتَــيَّا وَأَهْــلِكِــي بِنْتَــيَّا

عَنَـــيْتُ: ذِئْبَتَـــيَّا ثُـــمَّ انْثَـنِي إِلَـيَّـــا
فَأَمْطِـــــرِي عَـلَيَّا جاحِمَـــــكِ العَتِـــيَّا
جَـــزاءَ خُـدْعَتَـيَّا وأَلْهِـــــبِي جَنْبَـــيَّا
كِفَـــــاءَ خَـيْبَتَـــــيَّا».

ثُمَّ تُعاوِدُهُ الذِّكْرَياتُ الْمُؤْلِمَةُ، وتتَرَدَّدُ في سَـمْعِه كلماتُ بِنْتَيْهِ الَّتي كانَتَـا تُمَلِّقَانِهِ بها ـ لِتَسْـتَوْلِيَا عَلَى مُلْكِهِ ـ ويُقابِـلُ بَيْنَها وبينَ ما رآهُ منْ غَدْرِهِمَـا بِهِ، واسْـتِهَانَتِهِمَا بِخَطَرِهِ (قَدْرِهِ وقِيمَتِهِ)؛ فيَسْـتَأْنِفُ صِياحَهُ مُفزِّعًا، وَيَقُولُ مُوَلْوِلًا مُرَوَّعًا:

«لَقَـدْ خَدَعَنِي ما نَمَّقَتْ (ما زَيَّنَتْ) بِنْتَـايَ مِنَ الْكَلامِ، وَقَدْ دَهَانِي مَا دَهَانِي (أَصَابَنِي ما أصابَنِي)، جزاءَ ما صَنَعْتُ في الانْخِدَاعِ بِهِمَا. فَيَا أَيَّتُهَا الرِّيَاحُ: اشْتَدِّي حتَّى تَنْسِفي (تُدَمِّرِي) الشَّامِخَاتِ (الْجِبالَ الْعالِيَةَ).

ثُمَّ أَنْشَدَ:

«لِـــيرُ الَّـــذِي أَغْـــراهُ مـــا نَمَّقَـــتْ بِنْتَـــاهُ
دَهَـــاهُ مـــا دَهَـــاهُ جَـــزاءَ مـــا أَمْضَـــاهُ
وَقَـــدَّمَـــتْ يَـــداهُ
دَوِّي رِيـــاحًا قاصِـفَـــهْ وأَلْهِبِيـــهَا عَـــاصِفَـهْ
لِلشَّامِخَـــاتِ ناسِفَـــهْ».

٤ ـ آلامُ الشَّيْخِ

وَهكذا قَضَى الشَّيْخُ لَيْلَةً مُروِّعةً، وهُو هائمٌ على وَجْهِهِ، كأَنَّهُ نِصْفُ مَجْنُونٍ، مِمَّا لحِقَهُ مِنَ الآلامِ الْمُبَرِّحَةِ (الْمُضْنِيَةِ)، والْأَحْدَاثِ الهائِلَةِ.

وَلقدْ بَذَلَ وَزِيرُهُ الْمُخْلِصُ «كَنْت» كُلَّ مَا في وُسْعِهِ، لِلتَّرْفِيهِ (للتَّخْفِيفِ) عنْ مليكِهِ، وتَهْوِينِ مُصابِهِ عَلَيْه، ما وَسِعَتْهُ حِيلَتُهُ. وافْتَنَّ «البُهْلُولُ» في ضربِ الأَمثالِ؛ لِيُذْهِلَهُ عن نَكْبَتِهِ، وَيُنْقِذَهُ مِن هَوْلِ الْجُنونِ الَّذِي أَوْشَكَ أنْ يَحُلَّ بِهِ، كما توسَّلَ إليهِ أنْ يَقْبَلَ رَجاءَهُ، فَيأْوِيَ معهُ إلى خُصٍّ (بَيْتٍ مِنَ الشَّجَرِ) قَرِيبٍ، حتَّى تنتهِيَ تِلْكَ الْعَواصِفُ الْهُوجُ (الثَّائِرةُ).

ومازالَ بِهِ حتى أطاعَهُ، وسارَ معَهُ مُيَمِّمًا (قاصِدًا) ذلِكَ الكُوخَ، وَهُوَ يُناجِي نَفْسَه مَحْزونًا:

«أفي هذِهِ اللَّيْلَةِ تطرُدُني بِنْتَايَ؟! أفي هذِهِ اللَّيْلَةِ تُغَلِّقُ دُوني أَبوابُهُمَا؟! واهٍ منْكِ يا «رِيجانُ»، وتَبًّا (هَلاكًا) لَكِ يَا «جُنْرِيلُ»!

أهكذا تَجْزِيانِ بالْجُحُودِ أبَاكُمَا الشَّفِيقَ، الَّذِي وَهبَكُمَا كُلَّ ما مَلَكَ؟! إنَّ عاصِفَةَ الْجَوِّ ـ عَلَى قَسْوَتِهَا ـ لأَهْوَنُ مِنْ هذِهِ العاصِفَةِ الَّتِي أَثَرْتُمَاهَا في نَفْسِ أَبِيكُمَا بِمَا أَسْلَفْتُمَا (قَدَّمْتُما) إليْهِ من جُحودٍ وعُقُوقٍ!».

ولمَّا دَنَوْا مِنَ الْخُصِّ، قالَ المَلِكُ «لِير»:

«إنَّ أحْقَرَ الأشْياءِ ليُصْبِحُ عَظِيمَ القَدْرِ، جَلِيلَ الْخَطَرِ، مَتَى اشْتَدَّتْ إلَيْـهِ الحاجَةُ. فَلَا عَجَـبَ إذا عَدَدْنَا (قَدَّرْنَا) الظَّفَـرَ بِهَذَا الْخُصِّ غُنْمًا كبيرًا، في هذِهِ اللَّيْلَةِ الهائِلَةِ!».

٥ ـ أُنشُودَةُ «البُهْلُولِ»

واسْـتَمَعَ الْمَلِكُ «لِير» إلَى صَوْتِ مُغَنٍّ يَقْتَرِبُ مِنْهُ؛ فالْتَفتَ، فَإذا بِهِ «البُهْلُولُ»، يتظاهَرُ بالسُّرورِ، وَيَتكلَّفُ المَرَحَ (شِدَّةَ الفَرَحِ)، ويَلْتَفِتُ إلى مَولاهُ مُنشِدًا:

«قَسَمْتَ ـ بالأَمْسِ ـ مُلْكًا ... يا «لِيرُ»، أَظْـلَمَ قِسْـمَهْ!
أَقْصَـيْتَ كُـلَّ عَـلِيمٍ ... جَهْـلًا، وأَنْكَـرْتَ عِلْـمَهْ
وَرُحْـتَ تُـدْنِي لَئِيـمًا ... بالْمَـدْحِ يَسْـتُرُ لُـؤْمَهْ
يا مُطْفِـئَ النُّـورِ: مَهْـلًا، ... شَـرَيْتَ بالنُّـورِ ظُلْمَهْ!».

فقالَ الشَّيْخُ مَدْهوشًا:

«نَعَـمْ: لَقَدْ أَقْصَيْتُ (أَبْعَدْتُ) الْعَلِيمَ، وأَدْنَيْتُ (قَرَّبْتُ) اللَّئِيمَ. لَقَدْ أحْسَنْتَ التَّعْبِيرَ عَمَّا كُنْتُ أُفكِّرُ فيهِ الآنَ، وصدَقْتَ في إظْهَارِ ما نَاجَيْتُ بِه نَفْسِـي (ما حَدَّثْتُهَا سِـرًّا) في هذِهِ اللَّحْظَةِ. فما أبْرَعَكَ بَاكِيًا ومُغَنِّيًا، وما أظْرَفَكَ جَادًّا وهازِلًا!».

فَقالَ «البُهْلُولُ»:

«إنَّنِي أَكْثَرُ النَّاسِ حِفْظًا لِعَهْدِكَ، وَأَخْلَصُ الأَصْدِقَاءِ لَكَ. وَإِنِّي ذُو عَزْمٍ قَوِيٍّ، وَهِمَّةٍ عَظِيمَةٍ، وَرَأْيٍ صائِبٍ. وَلَوْ تَرَكْتَنِي أَحْكُمُ وأُبْرِمُ (أَجْعَلُ حُكْمِي نافِذًا)، لَقَسَمْتُ مُلْكَكَ قِسْمَةً عادِلَةً حَكِيمَةً».

ثُمَّ اسْتَأْنَفَ «الْبُهْلُولُ» غِناءَهُ مُنْشِدًا:

«بُهْلُولُ»: مَجْنُونُ «لِيرٍ» أَبَرُّ عَهْدًا وذِمَّهْ
أَوْفَى الأَخِلَّاءِ قَلْبًا وأَصْدَقُ الصَّحْبِ عَزْمَهْ
وَأَحْسَنُ القَوْمِ رَأْيًا وأَبْعَدُ النَّاسِ هِمَّهْ
لَوْ كانَ مَجْنُونُ «لِيرٍ» يَقْضِي، ويُبْرِمُ حُكْمَهْ
لَكانَ أَعْدَلَ قِسْمَهْ مِنهُ، وَأَوْفَرَ حِكْمَهْ.

٦ ـ شَيْطَانُ الْغَابَةِ

وَلَمَّا بَلَغَ المَلِكُ وَرَفِيقَاهُ ذلِكَ الْخُصَّ، أَسْرَعَ «البُهْلُولُ» إلى دُخولِهِ؛ لِيَرْتادَهُ (لِيَتَعَرَّفَهُ ويَخْتَبِرَهُ) لِصاحِبَيْهِ. وما كادَ يَفْعَلُ حَتَّى عادَ إلَيْهِمَا مُسرعًا، وهوَ يقولُ:

«حَذارِ أيُّها الرَّفيقانِ، فَقَدْ رأيْتُ في ذلِكُما الْخُصِّ شَيْطَانًا مَريدًا (عنيدًا قاسيًا). وهُوَ يَزْعُمُ أَنَّ اسْمَهُ «تُوم»، ويُلَقِّبُ نفْسَهُ بالْمِسْكِينِ،

ولقَدْ رأيْتُ عليْهِ سِمَةَ الخَبَالِ (عَلامَةَ الْجُنُونِ)؛ فهُوَ مَخْبولٌ إنْ كانَ إنْسِيًّا (مِنَ النَّاسِ)، وإذا صَدَقَ حَدْسِي (تَخْميني) وصَحَّ ظنِّي، فما هُوَ إلَّا شَيْطَانُ هذِهِ الغابَةِ».

فلما خَرَجَ منَ الْخُصِّ ذلكَ الشَّيْطانُ المِسْكينُ، وَجَدُوهُ أشْعَثَ أغْبَرَ (مُتَلَبِّدَ الشَّعَرِ، لَوْنُهُ كَلَوْنِ الغُبارِ)، عَارِيَ الْجِسْمِ إلَّا مِنْ أسْمالٍ باليَةٍ (أثْوَابٍ مُهَلْهَلَةٍ قَدِيمَةٍ)، تَلُوحُ عَلَيْهِ أماراتُ الْبُؤسِ.

فصاحَ بِه الْمَلِكُ «لِير»:

«مَاذَا بِكَ أيُّهَا الشَّقِيُّ المِسكينُ؟ هَلْ طَرَدَتْكَ ابْنتاكَ من بَيْتِكَ بَعْدَ أنْ أوْرَثْتَهما إيَّاه؟».

فَأَجَابَ الرَّجُلُ مُتَبالِهًا مُتَغَابِيًا:

«أنا: «تُوم» الْمِسْكينُ. فَهَلُمُّوا إلى بَيْتِي أيُّهَا الرِّفاقُ».

٧ ـ الأَمِيرُ الوَفِيُّ

وما اسْتَقَرَّ بِهِمُ الْمُقامُ، حتَّى رَأَوْا شَيْخًا يَجُوسُ خِلالَ الْغابَةِ (يَمُرُّ في طُرُقاتِها)، وَفي يَدِهِ مِشْعَلٌ يُنِيرُ له طَرِيقَهُ في الظَّلامِ الْحالِكِ.

وما تَبَيَّنَ الْوَزِيرُ «كَنْت» ذلِكَ الشَّيْخَ الْقادِمَ، حتَّى عَرَفَ أنَّهُ الأمِيرُ «جُلُسْتَر». فَسَأَلَهُ عَنْ سَبَبِ مَقْدَمِهِ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ الْهائِلَةِ. فقالَ لهُ:

«لَقَدْ طَـالَ بَحْثِي عنِ الْمَلِكِ «لِير»؛ لآوِيَـهُ (أُضِيفَهُ) في بيْتٍ قَريبٍ مِـنْ قَصْرِي؛ حتَّى لا يَهْتَدِيَ إليهِ أعْداؤُهُ الَّذِينَ يتربَّصُونَ بِهِ (يَنْتَظِرُونَ لَهُ الشَّـرَّ). وَإنِّي ليَحْزُنُنِي مَـا أَراهُ عليهِ من أمـاراتِ الْخَبَالِ (عَلامَاتِ ضَعْفِ الْعَقْلِ)».

فقالَ له «كَنْت»:

«لَقَدْ أصْبَحَ الشَّيْخُ أقْرَبَ إنْسانٍ إلى الْجُنونِ».

فقالَ الأمِيرُ:

«إنَّ نِصْـفَ ما حَلَّ بِهِ مِنَ الأحْداثِ (الْمَصَائِبِ) لَيُسْـلِمُ الْعَاقِلَ إلَى الْجُنُونِ».

٨ـ في بَيْتِ الأمِيرِ

وَبَعْدَ حِوارٍ (حَديثٍ) طَويلٍ، ذَهَبَ الْجَمِيعُ إلَى الْبَيْتِ الرِّيفيِّ الَّذِي أعَـدَّهُ الأميرُ لِسُـكْنَاهُمْ قَرِيبًا مِـنْ قَصْرِهِ. ثـم تَرَكَهُمْ مُسْـتَأْذِنًا عَلَى أَنْ يعـودَ إليْهِمْ بَعْدَ قَلِيلٍ. وجَلَسَ «لِير» مَعَ أصحابِه، وقدْ عادَ إلَيْهِ خَبالُهُ وَهَذَيانُـهُ؛ فتمثَّلَ نفسَـهُ قاضِيًـا يُحَاكِمُ بِنْتَيْـهِ، وَيَجْزِيهِمَا بِما أسْـلَفَتَاهُ (قَدَّمَتاهُ) إلَيْهِ مِنْ إساءَةٍ وَعُقوقٍ.

ومـا زالَ يَهْـذِي حتَّى خارَتْ قُـواهُ، وَزايَلَهُ رُشْـدُهُ (فارَقَـهُ هُداهُ)، وأسْلَمَهُ الضَّنَى (سُوءُ الْحالِ) والضَّعْفُ إلى نَوْمٍ عَميقٍ.

الفَصْلُ الرَّابِعُ

١ ـ الأَمِيرُ «جُلُسْتَر»

أَيُّهَا القارئُ الْعزيزُ:

لا شَكَّ في أَنَّكَ تُحِبُّ أنْ تَعْرِفَ مَنْ هُوَ الأميرُ «جُلُسْتَر» الذَّي عُنِيَ (اهْتَمَّ) بالْمَلِكِ «لِير»، وبذَلَ له كلَّ ما في قُدْرَتِهِ مِن رِعايَةٍ وَإِكْرَامٍ. وإنِّي لَمُحَدِّثُك ببعضِ حديثِهِ الْمُحزنِ؛ لتتعرَّفَ مكانَهُ من شُخُوصِ هذه القِصَّةِ الْخالِدَةِ.

كان الأميرُ «جُلُسْتَر» شديدَ الوَفاءِ لمَليكِه «لير»، وقد حَزِنَ لِمَا أصابَهُ من نكَباتٍ وأحْداثٍ، وبَكَى لِعَثْرَتِهِ (لِسَقْطَتِهِ). ولم يكنْ يَعْدِلُهُ (يُساوِيهِ) ـ في إخلاصِه وَوَفائِه له ـ غيرُ «كنت»: الوزيرِ، «وكُرْدِلْيا»: صُغْرَى بناتِ المَلكِ «لير».

٢ ـ وَلَدا الأَمِيرِ

وكان لِهذا الأميرِ المُخْلِصِ الوَفِيِّ وَلَدانِ، اسْمُ أحَدِهِمَا: «إِدْجار» واسْمُ الثاني: «إِدْمُنْد». فأمَّا الأوَّلُ فكانَ مِثالَ الوَفاءِ، وأمَّا أخوهُ فكان

مِثـالَ العُقُوقِ. ولم يَكُـنِ الثَّاني ـ عَلَى الحقيقةِ ـ وَلَدَ الأمير «جُلُسْـتَر»؛ ولكِنَّـهُ كانَ مُنْتَسِـبًا إِلَيْهِ؛ لأَنَّهُ تَبَنَّـاهُ (اتَّخَذَهُ ابْنًا) ـ مُنْذُ نَشـاءَتِه ـ وجَعَلَهُ صِنْوًا (أخًا) لابْنِهِ «إدْجار»، وبذَلَ لَهُ كلَّ ما يَمْلِكُ من رِعايةٍ وتهذيبٍ.

فلمَّا كبِرَ «إِدْمُنْدُ» نَسِيَ كلَّ ما حَباهُ به الأَميرُ «جُلُسْتَر» (ما أعطاهُ إيَّاهُ)، ولم يَكُنْ له غَرَضٌ يَسْـعَى إلى تَحْقيقِهِ، غيرُ الوِشـايَةِ (السَّـعْيِ بالسُّـوءِ) بأَخِيهِ، وإيغارِ صَدْرِ أبيهِ (إِشْعالِهِ غَيْظًا) عَلَيْهِ؛ لِيسْتَأْثِرَ وحْدَهُ بِكلِّ شيْءٍ.

٣ ـ فِرارُ «إدْجارَ»

ودَبَّـرَ ذلك الولـدُ الغادِرُ «إدْمُنْـد» مُؤَامَرَةً خَسِيسـةً لإقصاءِ صاحبِهِ (إبعادِهِ) عن أبيهِ؛ فأَوْهَمَ الأَميرَ أنَّ ولَدَهُ «إدْجار» يَأْتَمِرُ بِهِ (يُشاوِرُ نَفْسَهُ فِيـهِ) ليقْتُلَهُ؛ طَمَعًا في ثَرْوتِهِ العظيمةِ، ومَنصبِـهِ الْخَطيرِ. وما زالَ يُغْرِيهِ (يُطْمِعُـهُ) ويُؤَلِّبُهُ (يُثيرُهُ)، حَتَّى أَقْنَعَهُ بِصِدْقِ ما افْتَراهُ (ما اخْتَلَقَهُ)، بَعْدَ أَنْ قَـرأَ عليه كِتابًا زوَّرَهُ وعزاهُ (نَسَـبهُ) إلَى أَخيهِ. وقـد أَفْلَحَتْ مُؤَامَرَتُهُ ـ بَعْـدَ قليـلٍ ـ فَهرَبَ أَخُوهُ «إدجار»، فِرارًا من سُـخْطِ أَبيهِ الَّذِي تَوَعَّدَهُ بالْقَتْلِ، دُونَ أن يعرفَ لِغَضَبِهِ سببًا.

ومُنـذُ ذلِـكَ اليـومِ، تزَيَّـا «إدْجـارُ» بِـزِيِّ الفُقـراءِ، وتظاهَـرَ بالْبَلَهِ والْجُنُونِ، وغيَّر من هَيْئَتِه، وأطلقَ على نَفْسِـهِ اسـمَ: «توم الْمِسْكِين»،

الَّـذِي قال عَنْهُ «البُهْلُولُ»: «إِنَّه شَـيْطَانُ الغابَـةِ». كما ذَكَرْتُهُ لَكَ، فيما قَصَصْتُهُ عَلَيْكَ من أَنْبَاءِ الفَصْلِ السَّابِقِ.

٤ ـ مُسْتَشَارُ المَمْلَكَةِ

كان «إِدْمُنْد» شَدِيدَ الطُّمُوحِ (عَظِيمَ الرَّغْبَةِ فِي الْعُلُوِّ)، وكان يَجْمَعُ ـ إلى دهائِهِ (مَكْرِهِ) وذَكَائِهِ ـ من خُبْثِ الطَّبعِ ولُؤْمِ النفسِ مَا لَا يَخْطُرُ لِإِنْسـانٍ عَلَى بالٍ. وقدِ ابتَهَجَ لنَجاحِهِ في مؤامرتِهِ الْخَسيسَةِ الَّتِي دبَّرَها لإِقْصـاءِ أخِيهِ، وأَغراهُ (زَيَّنَ لَهُ) ذلـك الفوزُ بِمُضَاعَفَةِ هِمَّتِهِ، لتَحْقِيقِ غَايَتِـهِ البَعِيـدَةِ؛ وهي ارتقـاءُ العرْشِ والظَّفَـرُ (الْفَـوْزُ) بالْمُلكِ. وقد استولتْ هذه الغايةُ عليه وتَمَلَّكَتْ تَفْكِيرَه، وامتزَجَتْ بِدَمِهِ، وهَيْمَنَتْ (تَغَلَّبَتْ) على نَفْسِـهِ؛ فَأَصْبَحَ لا يُبالِي اقترافَ الشُّـنَعِ والآثَامِ (ارْتِكَابَ الْقَبَائِحِ والْجَرَائِمِ) في سَبِيلِ بُلُوغِ أُمْنِيَّتِهِ.

ولم يَلْبَثْ أن أَصْبَحَ مُسْتَشَـارَ الْمملكَةِ كلِّهَا، ومَوْضِعَ ثِقَةِ الأُخْتَيْنِ جميعًا. وَثَمَّ بدأ يُوغِرُ صَدْرَ «جُنْرِيل» و«ريجَانِ» عَلَى أبيهِمَا. وما زَالَ يَرْسُـمُ لَهُمَا الْخُطَّـةَ لِلْخَلاصِ منـهُ، ويُزَيِّنُ لَهُمَا ذَلِـكَ، حتَّى أَقْصَتاه عَنْهُمَا، وَخَلَا الْجَوُّ لذلك المُسْتَشارِ الْماكِرِ الخَبِيثِ.

٥ ـ الجاسُوسُ

وَلَـمْ يَقِـفْ لُؤْمُ طَوِيَّتِهِ (خُبْـثُ نِيَّتِهِ) عِنْدَ هذا الحـدِّ؛ فراحَ ينقُلُ إلى بِنْتَـيْ «لِيـرَ» أخْبَارَ الأميرِ «جُلْسْـتَر»، الَّذي تَبَنَّاهُ وتَعَهَّدَهُ منذُ نشـاءَتِهِ، وربَّـاهُ في حداثَتِـهِ. ولم يَخْطُرْ ببـالِ الأميرِ أنَّ «إدْمُنْـدَ» ـ أَقْرَبَ النَّاسِ إليْـهِ، وأَلْصَقَهُم بِهِ ـ يَتَجَسَّـسُ أخبارَهُ، ويُحْصِي (يَعُـدُّ) عَلَيْهِ أعمالَهُ، لِيُبَلِّغَهَا أعداءَهُ.

وَقَـدْ عَرَف «إدْمُنْدُ» ـ من مُحادَثَةِ الأميرِ ـ أنه يَعْتزِمُ العَوْدَةَ إلَى الْمَلِكِ «لير»؛ لِيُبَصِّرَ رفيقَهُ «كَنت» بما يتهدَّدُ مَلِيكَهُ مِنْ أخْطارٍ، ويُوصِيَهُ بالذَّهابِ إلى «دُوفَـرَ»، حيـثُ تُقِيمُ «كُرْدِلْيا»: صُغْـرَى بَنَاتِ «لِيـر»؛ لِيُفْضِيَ إلَيْها (لِيُخْبِرَهَا) بِما لَقِيَهُ أَبُوها، وبِمَا لا يزالُ يَلْقاهُ، مِنْ أَحْداثٍ وخُطُوبٍ.

٦ ـ نَصيحَةُ الأَمِيرِ

ولَمَّـا خَـرَجَ الأَمِيرُ «جُلْسْـتَر» من قَصْـرِهِ، عَائِـدًا إلى «الدَّسْـكَرَةِ» (القَرْيَـةِ) الَّتِـي أَوْدَعَ فيها «لِيـرَ» وَأَصْحَابَهُ، أَفْضَى إلَيْهِمْ بما يُسـاوِرُهُ مِـنْ قَلَقٍ عَـلَى حَيَاةِ الملـكِ. وألحَّ عَلَى الشَّـيْخِ «لير» في أَنْ يُسـافِرَ إلَى «دُوفـر»؛ حيثُ يَلْقَى ـ من رِعايةِ بِنْتِهِ الْبَارَّةِ «كُرْدِلْيا» وعنايَتِهَا ـ ما هو

خَلِيقٌ (جَدِيرٌ) بِهِ. وزَوَّدَهُ بما يَحتاجُ إليه منَ الْمَالِ. وَقَدْ أَدْرَكَ الْوَزِيرُ «كَنْتُ» ما يتهدَّدُ «لِيرَ» مِنَ الأَخْطارِ؛ فأسْرَعَ إلى تَنْفِيذِ مَا أَوْصاهُ بِهِ الأميرُ «جُلُسْتَر» قَبْلَ فَواتِ الفُرصَةِ.

٧ـ نَكْبَةُ الأَمير

وما عادَ الأميرُ «جُلُسْتَر» إلى قَصْرِهِ، حتَّى قَبَضَتْ عليه «رِيجانُ» وزوجُها و«جُنريلُ» أُخْتُها، بَعْدَ أَنْ عَرَفُوا مِنْ «إِدْمُنْدَ» الْخَبِيثِ، كلَّ ما أَسْداهُ (قدَّمَه) الأميرُ إلى الْمَلِكِ «لير» مِنْ صَنِيعٍ مَشْكُورٍ.

واشْتَدَّ غَضَبُهُمْ عَلَى الأميرِ الْكَرِيمِ؛ فأَوْثَقُوا كِتافَهُ، وصَفَّدُوه (وضَعُوهُ في القُيُودِ والأَغْلَالِ). وتَمادَوْا في الإساءَةِ والتنكيلِ بِهِ (تعْذيبِهِ) وَشَتْمِهِ، ثم نَتَفُوا شَعَراتٍ مِنْ لِحْيَتِهِ. فَلَمَّا غضِبَ وثارَ لكرامَتِهِ، وذكَّرَهُمْ بِمَا هُوَ أَهْلٌ لَهُ مِنَ الرِّعَايَةِ، زادَتْ نِقْمَتُهُم عليْهِ. فتقَدَّمَ إليهِ زَوْجُ «ريجانَ»، وأخْرَجَ عيْنَيْهِ واحِدَةً بَعْدَ أُخرَى؛ فَصرَخَ الأَمِيرُ مُغَوِّثًا (مُسْتَغِيثًا)، بَعْدَ أن عَمِيَتْ عَيناهُ. فَتَحَمَّسَ لنُصْرَتِهِ أحدُ خَدمِهِ، وطَعَنَ الجاني الأثِيمَ طَعْنَةً قاتِلَةً؛ انْتِصَارًا لِمَوْلَاهُ، وانتِقامًا لهُ مِمَّنْ أعْمَاهُ. وقدْ لَقِيَ حَتْفَه (مَاتَ) ذَلِكَ الخادِمُ الشَّهْمُ في سبيلِ الواجبِ النَّبِيلِ.

أمَّا الأمِيرُ «جُلُسْتَر»، فقد ألقَوْا بِهِ خارِجَ الْقَصْرِ، دُون أنْ تُدْرِكَهُمْ شَفَقَةٌ بِهِ، ولا رَحْمَةٌ عليهِ.

٨ ـ الزَّارِعُ والأَمِيرُ

ويَمْشِي الأميرُ خُطُواتٍ قَلِيلَةً على غَيْرِ هُدًى، فيَلْقَاهُ شيخٌ في الثَّمانِينَ منْ عُمُرِهِ؛ فيسأَلُهُ الشَّيْخُ مَحْزونًا عمَّا حلَّ بِهِ مِنَ الأَحْداثِ. فَيَرْجُوهُ الأميرُ أن يبتَعِدَ عنهُ حَتَّى لا يُصيبَهُ منْ أجْلِهِ سُوءٌ، فيقولُ له الشَّيْخُ:

«أحْبِبْ بكلِّ ما ألْقَاهُ مِنْ أذًى وضُرٍّ في سبيلِكَ؛ فقدْ نَشَأْتُ في نِعْمَتِكَ، وَعِشْتُ مِنْ غَلَّةِ الأرضِ الَّتي اسْتَأْجَرْتُهَا منك وَمِنْ أَبيكَ. ولَنْ أترُكَكَ وَحِيدًا، بَعْدَ أن فقدْتَ نُورَ عَيْنَيْكَ، وعَجَزْتَ عَنْ تَعَرُّفِ الطَّرِيقِ».

فقالَ لهُ «جُلُسْتَر»:

«لقدْ تعثَّرْتُ في طَرِيقِي حينَ كُنْتُ أُبْصِرُ، وأخْطَأْتُ في الْحُكْمِ عَلَى ما رَأَيْتُ، ولَمْ تَعْصِمْنِي (لَمْ تَحْفَظْنِي) عيْنَايَ مِنَ الْخَطَإِ. فَلَعَلِّي أعُودُ إلى الصَّوابِ وَأَنَا أعْمَى، فلا أتسرَّعُ في الْحُكْمِ عَلَى ما يُحِيطُ بِي مِنَ الأَشْيَاءِ».

٩ ـ الأَمِيرُ والْمَجْنُونُ

ولَقِيَهُمَا في طَرِيقِهِمَا «تُوم الْمِسْكينُ»، وهُو يتظاهَرُ بالْجُنُونِ كَعَادَتِهِ. ولعلَّكَ الآنَ قد عَرَفْتَهُ، بعدَ أنْ أَسْلَفْتُ لكَ القوْلَ: إنَّه «إدْجارُ» وَلَدُ الأميرِ، الَّذِي وَشَى به أَخُوهُ «إدْمُنْد».

ورَأَى الوَلَدُ البَرُّ الْوَفِيُّ مَا أَصَابَ وَالِدَهُ مِنَ النَّكَبَاتِ؛ فَفَاضَ قلبُهُ لَوْعَةً (حُرْقَةً) وحُزْنًا. ولَكِنَّهُ آثَرَ (فَضَّلَ) التجَلُّدَ والصَّبْرَ؛ حتَّى لا يَفْطُنَ أَبُوهُ إلى حقيقةِ أَمْرِهِ فَتَنْكَشِفَ حيلتُهُ.

وقدْ أَلَحَّ الأميرُ عَلَى الشَّيْخِ الزَّارِعِ أَنْ يُسْلِمَهُ إلى ذلكَ الْمِسْكِينِ. فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ:

«وَكَيْفَ أُسْلِمُكَ إِلَى مَجْنونٍ؟!».

فأَجابهُ الأميرُ:

«لقدْ أَصْبَحَ مَنْ كُنَّا نَحْسَبُهُمْ عُقَلَاءَ، خادِعِينَ مُضَلِّلِينَ في هذهِ الأَيَّامِ السُّودِ. ولعَلِّي أَجِدُ في هَدْيِ (في رَأْيِ) من نَحْسَبُهُم مَجانِينَ خَيْرًا مِما وَجَدْتُهُ في هَدْيِ أُولئِكَ الْمُتَظاهِرِينَ بالتَّعَقُّلِ والْحِكْمَةِ. فإِذَا شِئْتَ أن تُسْدِيَ إِلَيَّ جَمِيلًا (تَصْنَعَ مَعِي مَعْرُوفًا)، فأَحْضِرْ ثِيَابًا لِتكْسُوَ بِهَا ذَلِكَ الْعَارِيَ الْمِسْكِينَ».

فقالَ له الزَّارِعُ:

«سأُحْضِرُ لهُ خَيْرَ ما عِنْدِي مِنَ الثِّيابِ».

١٠ ـ حِوارُ الأَميرِ ووَلَدِهِ

وَسَارَ الأَميرُ مَعَ ولَدِهِ «إدْجارَ»، الَّذِي كَانَ لا يَزالُ يتَظاهَرُ أَمَامَ أَبِيهِ بأَنَّهُ مَجْنُونٌ؛ حتَّى لا يَفْطُنَ إِلَى حَقيقَتِهِ. وسأَلَهُ الأَميرُ:

«أتَعْرِفُ الطَّرِيقَ ـ يَا فَتَى ـ إلى «دُوفر»؟».

فَقَالَ لهُ:

«أعْرِفُ كُلَّ خَافِيَةٍ مِنْ خَوَافِيهَا، وَلَا أَجْهَلُ شَيْئًا مِنْ مَعالِمِهَا ومَجَاهِلِهَا».

فقالُ لهُ:

«بِرَبِّكَ: سِرْ مَعِي حتَّى تَبْلُغَ بِيَ الصَّخْرَةَ الْعَالِيَةَ الَّتِي تُشْرِفُ (تُطِلُّ) عَلَى البَحْرِ من قِمَّةِ الْجَبَلِ؛ لأُلْقِيَ بنَفْسِي مِنْ ذَلِكَ العُلُوِّ الشَّاهِقِ؛ فَأَخْلُصَ مِمَّا أُكابِدُهُ مِنَ الآلَامِ الْمُبَرِّحَةِ (الْمُوجِعَةِ). وخُذ هَذَا الكِيسَ بِمَا فيه مِنْ مالٍ، مُكافأَةً لَكَ على ذلكَ».

فَتَظَاهَرَ ولدُهُ بِطاعتِهِ، وما زَالَ يَمْشِي مَعَهُ حتَّى بَلَغَ بِهِ صَخْرَةً قَلِيلَةَ الارْتِفَاعِ في سَفْحِ الجَبَلِ. فَقَالَ لَهُ:

«مـا أبْعَـدَ هَذِهِ القِمَّةَ الشَّـاهِقَةَ عـنْ سَـطْحِ الْبَحْـرِ! إنِّي لأَرَى أَحَدَ الصَّيَّادِينَ وهوَ واقِفٌ على الشَّـاطِئِ؛ فيُخَيَّـلُ إلَيَّ ـ مِنْ فَرْطِ الْعُلُوِّ ـ أَنَّهُ فَـأْرَةٌ صَغِيرةٌ، وأَرَى الْمَراكِبَ الكَبِيرَةَ؛ فلا أكادُ أتبيَّنُ رَسْـمَهَا، لفَرْطِ ضَآلَتِهَـا (شِـدَّةِ صِغَرِهَا)، وحَقَارَةِ أحْجَامِهَا! هَلُمَّ ـ يا سَـيِّدِي ـ فَاقْفِزْ كَمَا تُرِيدُ!».

ولَقَدْ خُيِّلَ إلى الأَمِيرِ أنَّ مُحَدِّثَهُ صَادِقٌ فيما يقُولُ؛ فَقَفَزَ مِنَ الصَّخْرَةِ إلى سَفْحِ الْجَبَلِ، دُونَ أنْ يُصِيبَهُ سُوءٌ.

وأقْبَلَ ولدُهُ «إدْجارُ» وقدْ غَيَّرَ مِنْ صَوْتِهِ مُتَظَاهِرًا بِأَنَّهُ شَخْصٌ آخَرُ؛ فقال لهُ:

«كَيْـفَ هَوَيْتَ ـ يا عَـمِّ ـ مِنْ ذَلِكَ الارْتِفَاعِ الشَّـاهِقِ، دُونَ أنْ يُدَقَّ عُنُقُكَ (تَنْكَسِرَ رَقَبَتُكَ)، وتُسْحَقَ عِظامُكَ؟».

فعَجِبَ الأَميرُ ممَّا سَمِعَ، وقالَ له:

«مِنْ أيِّ ارْتِفَاعٍ هَوَيْتُ (سَقَطْتُ)؟».

فأَجَابَهُ «إدْجارُ» مُتَظاهِرًا بالدَّهْشَةِ والْعَجَبِ:

«أَلَا تعـرِفُ مَـدَى الْهُوَّةِ السَّـحيقَةِ (مِقْـدَارَ الْحُفْـرَةِ العميقَةِ) التي تَرَدَّيْـتَ (سَـقَطْتَ) فِيهَا؟! لَقَـدْ رَأَيْتُك ـ مُنذُ لحْظَةٍ يَسِـيرةٍ ـ وأنتَ في عالِيَةِ هذا الْجَبلِ الشَّاهِق، وَمَعَكَ مَخْلُوقٌ عَجِيبٌ، تَبدُو عيْنَاهُ كأَنَّهُمَا ـ لشـدَّةِ اتِّساعِهِمَا ـ قَمَرَانِ مُسْـتَدِيرَانِ، وقدْ خُيِّلَ إلَيَّ أنَّ لهُ أَلْفَ وَجْهٍ.

وما أَشُـكُّ في أَنَّهُ شَـيْطَانٌ مَرِيدٌ (خَبِيثٌ). فلْتَهْنَأْ بِنَجاتِكَ منهُ، ولْتَفْرَحْ بما ظَفِرْتَ به مِنَ السَّـلامَةِ؛ فما أَشُـكُّ في أنَّ العِنَايَةَ الإِلهِيَّةَ تَصْحَبُكَ وتَحْرُسُكَ».

١١ ـ في الْحُقُولِ

وإِنَّهُمَا لَيَسِيرانِ في الْحُقُـولِ، إِذْ لَقِيَهُمَا الْمَلِكُ «لِيرُ» وَقَدْ عَقَدَ عَلَى رَأْسِـهِ تَاجًا مِنَ الأَزْهَارِ الْبَرِّيَّةِ. فلمَّا حَيَّاهُ «إِدْجارُ»، أَنشـأَ «لِير» يَهْذِي ويُجَمْجِـمُ أَلْفَاظًـا لا مَعْنَى لها. فعَرَفَهَ الأَمِيرُ «جُلُسْـتر» ـ حينَ سَـمِعَ صَوْتَه ـ وَسَأَلَهُ قائِلًا:

«تُرَى مَنْ أَرَى؟ أَلَسْتَ الْمَلِكَ «لِيرَ»؟».

فأَجَابَهُ:

«إِنَّ كُلَّ جارِحَةٍ مِنْ جَوَارِحِي (كلَّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَائِي)، وكُلَّ شَعَرَةٍ مِنْ شَـعَراتِ جِسْـمي، لَتَنْطِقُ صارِخةً مُحَدِّثةً: أَنَّنِي الْمَلِكُ «لِير». أَمَّا أَنْتَ، فما أَظُنُّكَ إِلَّا بِنْتِي «جُنْرِيلَ»، برَغْمِ هذِهِ اللِّحْيَةِ الْبَيْضاءِ!».

ثُـمَّ اسْـتَوْلَى الْخَبَـالُ وَالْهَذَيانُ عليْهِ مـرَّةً أُخْرَى. فَحَـزِنَ الأَميرُ لِمَا حَـدَثَ، وهـانَ عَلَيْهِ ما حَلَّ بِهِ مِنْ أَحْدَاثٍ وخُطُـوبٍ، بعْدَ أن رَأَى ما بَلَغَهُ الْملكُ «لير» مِنْ سُوءِ الْمَآلِ (الْعَاقِبَةِ).

١٢ ـ عَوْدَةُ الْمُخْلِصَةِ

هَـدأَتِ الْعَوَاصِـفُ الثَّائِرَةُ، وسَـكَنَتِ الرُّعودُ الْمُدَوِّيَةُ، وتقشَّـعَتِ (زَالَتِ) السُّـحُبُ الْمُتَلَبِّدَةُ، وَظَهَرَتِ السَّـمَاءُ صافيـةً بَعْدَ أنْ حَجَبَتْهَا الْغُيُومُ. وعادَتِ الْبِنْتُ الوفِيَّةُ «كُرْدِلْيا» في جيشِـها الْعظيمِ؛ لتُنْقِذَ أَبَاهَا مِمَّـا يُعانِيـهِ مِنَ الأَهْـوَالِ والكَوَارِثِ. وكانَـتْ قَدْ عَلِمَتْ مِـنَ الْوَزِيرِ الْمُخْلِـصِ «كَنْـت» مـا عَانَاهُ الشَّـيْخُ «لِير» مِـنَ الْخُطُـوبِ والْمِحَنِ. فأَخْبَـرَتْ زَوْجَهَا مَلِكَ «فَرَنْسَـا» بتلكَ الْقِصَّةِ الْمُفَزِّعَـةِ؛ فَلَمْ يَتَرَدَّدْ في إِعْـدَادِ جَيْشٍ كَبِيرٍ لتأْدِيبِ أُخْتَيْهَا الْغادِرَتَيْنِ، والتَّنْكِيلِ بِهِمَا (جَعْلِهِمَا نَكَالًا وعِبْرَةً)؛ جَزاءَ ما أَسْلَفتاهُ إِلَى أَبِيهِمَا «لِير» مِن إِسَاءَةٍ وجُحُودٍ.

وَمَا كَانَ أسرعَ «كُرْدِلْيا» صُغْرَى الْبَنَاتِ، وأَوْفَاهُنَّ عَهْدًا، وأكرمَهُنَّ نَفْسًـا، إِلَى نَجْـدَةِ أَبِيهَا؛ فَقَـدْ غَادَرَتْ «دوفر» ـ مِـن فَوْرِها ـ وما زالَتْ تَجِدُّ في سَيْرِها، حتَّى وصلَتْ إِلى أَبِيها، وهي أَشْوَقُ ما تكونُ إلى لقائِهِ، ولَثْمِ يَدَيْهِ (تَقْبِيلِهِمَا)، والاعْتِذَارِ له مِمَّا كابَدَه (قَاسَاهُ) مِنْ عُقوقِ بِنْتَيْهِ، وما لَقِيَهُ عَلَى أَيْدِيهِمَا مِنْ إِذْلالٍ وهَوَانٍ.

١٣ ـ نَصِيحَةُ الطَّبِيبِ

وما وَصَلَتْ إليه، حتَّى وَجَدَتْهُ مُسْتَغْرِقًا في سُباتٍ (نَوْمٍ) عميقٍ.

فقالَ لها الطَّبِيبُ:

«أَتَأْمُرِينَ ـ يا مَوْلاتي ـ أن أُنبِّهَهُ؟».

فقالَتْ لَهُ:

«ليس لي أَنْ آمُرَ بما ليْسَ لي بهِ عِلمٌ. فافْعَلْ ما يُوحِيهِ إِلَيْكَ طِبُّكَ، ونفِّذْ مَا تُشِيرُ به علَيْكَ خِبْرَتُكَ وتَجارِبُكَ».

فقالَ الطَّبِيبُ:

«أَرَى أن نُوقِظَهُ على عَزْفِ الْمُوسِيقَى، بعد أن نَكْسُوَهُ حُلَّةً جديدةً (ثَوْبًا لم يُلْبَسْ). ومتَى استيقَظَ على الأَلْحَانِ المُشْجِيَةِ (المُطْرِبَةِ)، كُنْتِ أَوَّلَ مَنْ يَرَاهُ؛ فلا يَلْبَثُ أن يَعُودَ إِلَيْهِ رُشْدُهُ الَّذي أَوْشكَ أن يُفارِقَهُ. وإِنَّ في مُحادثَةِ جلالتِكِ إِيَّاهُ لَدَوَاءً أَنْجَعَ (أَشْفَى) لَهُ مِنْ كُلِّ دَوَاءٍ».

١٤ ـ مُنَاجَاةُ «كُرْدِلْيا»

فَقَالَتْ «كُرْدِلْيا»:

«اصْنَعْ ـ لِشِفَائِهِ ـ ما تَشاءُ، وابْذُلْ في سَبيلِ ذلِكَ ما تَسْتَطِيعُ بِلَا إِبْطاءٍ».

ولمَّا عَزَفَتِ الْمُوسيقَى، دَبَّتِ الْيَقَظَةُ في نَفْسِ الْمَلِكِ شَيْئًا فَشَيْئًا، حَتَّى أَفَاقَ مِمَّا غَشِيَهُ (مِمَّا أصابهُ)، واسْتَيْقَظَ مِنْ سُباتِهِ العمِيقِ.

وَكَانَتْ «كُرْدِلْيا» شديدَةَ اللَّوْعَةِ لِمَا أصابَ والِدَهَا الْكَرِيمَ مِنْ هَوْلِ تِلْكَ العاصِفَةِ الْهَوْجاءِ الَّتي أَضْعفَتْ جِسْمَهُ، وأرْهَقَتْ (أتْعَبَتْ) أَعْصَابَهُ، فَوَقَفَتْ تَتَأَمَّلُ وَجْهَهُ الْحَزِينَ، وتُناجِيهِ مُلْتَاعَةً (مُتألِّمَةً)، وهِيَ تَقُولُ:

«أهكذا تَجْزِيكَ بالْعُقُوقِ والْغَدْرِ بِنْتَاكَ، جَزاءَ ما أَسْلَفَتْ إِلَيْهِمَا بِالْخَيْرِ يَداك؟! أَهَكَذَا تَبْلُغُ قَسْوَةُ الْقَلْبِ مِنْهُمَا أن تُسْلِمَاكَ إِلَى الرِّيحِ الْعَاتِيَةِ، والرُّعُودِ المُدَوِّيَةِ؟!».

ثُمَّ أَنْعَمَتِ النَّظَرَ في وَجْهِ الشَّيْخِ، وَقَدِ اشْتَدَّتْ لَوْعَتُها وحُزْنُها، فَقالَتْ:

«كيْفَ رَضِيَتَا لِهذا الْوَجْهِ أنْ يَتعرَّضَ لأهْوَالِ الْعَوَاصِفِ الْهُوجِ، ولَيْسَ عَلَيْهِ مِنْ غِطَاءٍ يَقِيهِ غائِلَةَ الْبَرْدِ (شِدَّتَهُ) غَيْرُ تِلْكَ الشَّعَرَاتِ المُبْيَضَّةِ الرَّقِيقَةِ؟! شَدَّ ما كابَدْتَ ـ يا أَبَتِ ـ مِنَ الْهَوْلِ والضَّنَى (الْمَرَضِ). وشَدَّ ما أَسَأْتُمَا، أَيَّتُهَا الشَّقِيقَتَانِ!

أَمَا لوْ أنَّ لي عدُوًّا لَدُودًا أغْرَى بِإِيذَائِي كَلْبًا ضارِيًا حقُودًا، فَعَضَّنِي دُونَ أنْ أُسْلِفَ إِلَيْهِ إساءةً، ثُمَّ لَقِيتُ الْكَلْبَ الشَّرِسَ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ اللَّيْلاءِ (الشَّدِيدَةِ الظُّلْمَةِ)، وقَدْ نُبِذَ بالْعَراءِ (الأرْضِ الْخالِيَةِ)؛ لآوَيْتُهُ في بَيْتِي وَأَدْفَأْتُهُ، مُتَناسِيَةً كلَّ ما أسْلَفَ إِلَيَّ مِنْ أَذِيَّةٍ وَإِيلَامٍ.

فَكَيْفَ بِمَنْ وَهَبَ لَكُمَا مُلْكَهُ الْعَظِيمَ، وتَفَنَّنَ في بِرِّكُما، وَلَمْ يَدَّخِرْ أيَّ وسِيلَةٍ في سَبِيلِ إِسْعادِكُمَا! أَهكَذَا تَجْزِيَانِهِ؟!

أيْنَ أَلْفَاظُكُمَا الْعَذْبَةُ الْخَادِعَةُ الَّتِي كُنْتُمَا تُمَلِّقَانِهِ بِهَا يَوْمَ دَعَاكُمَا لاقْتِسَامِ مُلْكِهِ؟!

لَقَدْ تَمَثَّلْتُ (تَخَيَّلْتُ) مِنْ فُنُونِ غَدْرِكُما صُوَرًا وألوانًا لا تُحْصَى، وَلكِنَّ ما تَكَشَّفَ لي مِنْ ضُرُوبِ الْقَسْوَةِ وفُنُونِ الطَّمَعِ ـ مِنْكُما ـ قَدْ فَاقَ جَمِيعَ ما تَمَثَّلْتُهُ، وَأَرْبَى (زَادَ) عَلَى كُلِّ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ خَيَالي مِنْ أَفانِينِ العُقُوقِ والإِسَاءَةِ (أصنافِهِمَا)».

١٥ ـ يَقَظَةُ الشَّيْخِ

وَأَفَاقَ الشَّيْخُ «لِير» مِنْ سُبَاتِهِ العَمِيقِ، فَأَقْبَلَتْ عليْهِ بِنْتُهُ الْوَفِيَّةُ «كُرْدِلْيَا» تُحَيِّيهِ قائِلَةً:

«كيفَ أَصْبَحْتَ، يا صَاحِبَ الْجلالَةِ؟».

فَبَدَتِ الدَّهْشَةُ على وَجْهِهِ، وَلَمْ يَعْرِفْ: أَفي حُلْمٍ هُوَ أَمْ في يَقَظَةٍ؟! ثمَّ قَالَ مُتَحَيِّرًا:

«لِمَاذَا بَعَثْتُموني مِنَ المَوْتِ؟ وَلِمَاذَا أَخْرَجْتُمُوني من ظُلْمَةِ القَبْرِ بعد أنْ أَرَاحَنِي المَوْتُ من كوارِثِ الزَّمَنِ ومصائِبِ الْحَيَاةِ؟».

ثمَّ نَظَرَ إلى «كُرْدِلْيا» مذْهُولًا، وَقَالَ:

«وَأَنْتَ أَيُّهَا الرُّوحُ المَلائِكِيُّ الْحَنُونُ، خبِّرْني: مِنْ أيِّ مكانٍ مِنْ عُلْيَا السَّمَاوَاتِ نَزَلْتَ؟ وكيفَ حَلَلْتَ هَذَا الوادِيَ؟ وَلأَيِّ غايَةٍ جِئْتَ؟».

فَقَالَتْ «كُرْدِلْيَا»:

«هَل عَرَفْتَنِي، يا مَوْلَايَ؟».

فَأَجَابَهَا:

«أنْتَ ـ بِلَا شَكٍّ ـ أَكْرَمُ رُوحٍ مَلائِكِيٍّ رَأَيْتُهُ في حَيَاتي. فَخَبِّرْني بِرَبِّكَ ـ أَيُّهَا الرُّوحُ الطَّاهِرُ ـ في أيِّ وَقْتٍ حَلَّتْ بِكَ الوَفَاةُ؟».

١٦ ـ حِوارُهُ مَعَ «كُرْدِلْيا»

فَلَمْ تَيْأَسْ «كُرْدِلْيا» مِنْ شِفَائِهِ، وَأَقْبَلَتْ عليْهِ تُؤَسِّيهِ وتُلَاطِفُهُ، وتَطْلُبُ إليهِ أنْ يُهَدِّئَ مِنْ سَوْرَةِ نَفْسِهِ الْمَحْزُونَةِ. فقالَ مَدْهُوشًا:

«حَسْبُكَ أَيُّهَا الرُّوحُ الْمَلائِكِيُّ، حَسْبُكَ (كَفَاكَ)! فَما أَدْرِي ـ مِمَّا يُحِيطُ بِي مِنْ هذِهِ الأَشْيَاءِ ـ شَيْئًا، وَمَا أَعْرِفُ أيَّ ثَوْبٍ هَذَا الَّذِي أَرْتَدِيهِ؟ وَلَا أدْرِي مَنِ الذي أَلْبَسَنِيهِ؟ وَلَوْ سأَلْتُمُونِي ـ في هذه اللَّحْظَةِ ـ في أيِّ مَكَانٍ أَنَا؟ لَمَا عَرَفْتُ لِسُؤَالِكُمْ جَوَابًا!

صَدِّقْ ـ أَيُّهَا الرُّوحُ الْكَرِيمُ ـ أَنَّنِي لا أعرِفُ كيفَ قضَيْتُ يومَ أمسِ! ولا أَدري: أَنَائِمٌ أَنَا أَمْ يَقْظَانُ؟ ثم لا أَدْرِي أَحَيٌّ أَنَا أَمْ مَيِّتٌ؟ وَلَوْ طاوَعْتُ نَفْسِي، وَأَفْضَيْتُ بِمَا أُضْمِرُهُ، لَحَسِبْتُمُونِي مَخْبُولًا أو مَعْتُوهًا!

إنني لأَتَمَثَّلُ فِي هَذَا الرُّوحِ الْملائِكِيِّ صُورَةَ بِنْتِي الوَفِيَّةِ «كُرْدِلْيَا» فَلَا يَسْخَرَنَّ مِنْ هَذَا الوَهْمِ أَحَدٌ؛ فَإِنَّنِي أَعْتَقِدُ أَنَّنِي لا أَزالُ عَلَى قَيْدِ الحياةِ، كما أَعْتَقِدُ أَنَّ هَذَا الرُّوحَ الْمَاثِلَ أَمَامِي هُوَ «كُرْدِلْيا» بِنْتِي».

فَقَالَتْ «كُرْدِلْيَا» باكِيَةً:

«ما أَصْدَقَ فِراسَتَكَ (إِصَابَةَ ظَنِّكَ)، وَأَصَحَّ رَأْيَكَ، أَيُّهَا الوَالِدُ الكَرِيمُ!».

فَقَالَ لَهَا مُتَأَلِّمًا:

«لِماذا تَبْكِينَ، أَيَّتُهَا البارَّةُ الْمُحْسِنَةُ؟ أَأَنْتِ تَحْزَنِينَ لِمَا أَصَابَنِي بَعْدَ أَنْ أَسْلَفْتُ إِلَيْكِ مِنَ الإِساءَةِ مَا أَسلفْتُ؟

أَكذَلِكِ تَجْزِينَنِي إِحْسَانًا بإساءَةٍ، عَلَى حِينِ قَدْ جَزَتْنِي أُخْتَاكِ إِسَاءَةً بِإِحْسَانٍ؟

أَمَا لَوْ أَنَّكِ أَنْكَرْتِنِي ـ كما أَنْكَرَتْنِي أُخْتَاكِ ـ لَكُنْتِ فِي سَعَةٍ مِنَ العُذْرِ».

فَقَالَتْ لَهُ:

«بِرَبِّكَ لَا تَسْتَسْلِمْ لِأَحْزَانِكَ ـ يا أَبَتِ ـ فَإِنَّ ذلك يَمْلأُ نَفْسِي هَمًّا ولَوْعَةً. هَلُمَّ يَا أَبَتِ، فَلَنْ تَرَى إِلَّا مَا يَسُرُّكَ».

١٧ ـ اعْتِذَارُ النَّادِمِ

فَقَالَ لَهَا:

«لقد أَسَـأْتُ إليْكِ أَبْلَغَ إساءَةٍ، وَمَا أَجْدَرَني أَن أَطلُبَ إلَيْكِ الصَّفْحَ والغُفْـرانَ (الْمُسـامَحَةَ والْمَغْفِـرَةَ). فَتَجَـاوَزِي (اصْفَحِـي) ـ أَيَّتُهَـا الْكَرِيمَةُ ـ عمَّا قَدَّمَتْ يَدَايَ».

فقالتْ لَهُ:

«إنَّنِي بِنْتُكَ المُؤْتَمِرَةُ بأَمْرِكَ، الْمُلَبِّيَةُ لِإِشَـارَتِكَ، فلا يَحْزُنْكَ شَيْءٌ بعد الْيَوْمِ. أَمَّا أنا فلسْتُ إلَّا خادِمَةً وَفِيَّةً لَكَ مَدَى الحياةِ».

وَثَـمَّ أَدْرَكَ المَلِكُ «لير» ـ نَئِيشًـا (بَعْدَ فَـواتِ الوقْتِ) ـ مِقْدَارَ وَفَاءِ بِنْتِـهِ «كُرْدِلْيا»، وَعَرَفَ مَدَى خَطَئِهِ حِينَ صَدَّقَ مـا كانتْ تُزَوِّرُه بِنْتاهُ، مِنْ كاذِبِ اللَّفْظِ، وخاتِلِ الثَّنَاءِ (خادِعِ الْمَدْحِ).

الفَصْلُ الخَامِسُ

١ ـ هَزِيمَةُ «كُرْدِلْيَا»

مـا كان لِيَـدُورَ بِخَلَدِ الْمَلِـكِ «لِير» ـ حيـنَ أصْغَى إلى تَمْلِيـقِ بِنْتَيْهِ الْخادِعَتَيْـنِ، وعَـقَّ نَصِيحَـةَ وَزِيـرِهِ المخلـصِ «كَنْـت» ـ أنَّ أحْدَاثَ الدَّهْرِ ومَصَائِبَهُ سـتجتمِعُ مُتواليةً مُتأَلِّبَةً عليْهِ، للتَّنْكِيلِ بِهِ، مُسْـرِفةً في مُعَاقَبَتِـهِ عَلَى خَطَئِهِ؛ فلا تَلُوحُ بارِقَةٌ (نُورٌ) من الأمَلِ، حتَّى يعقُبَهَا لَيْلٌ دَاجٍ (شَدِيدُ السَّوَادِ) منَ الْيَأْسِ المُمِيتِ!

لَقَـدِ الْتَقَـى الْجَيْشَـانِ، وَكَانَ الأَمَلُ مَعْقُـودًا عَلَى نُصْـرَةِ «كُرْدِلْيا»، وَهَزيمَـةِ جيشِ أُخْتَيْهَا الْغَادِرَتَيْنِ وانْدِحارِهِ (انكِسـارِهِ). ولكِنَّ سُـوءَ حَظِّ الشَّـيْخِ «لِير» قَدْ خَيَّبَ هذا الأملَ البَاسِمَ الْمُشْرِقَ؛ فانْهَزَمَ جيشُ «كُرْدِلْيـا» أشْـنَعَ هزيمَـةٍ، وانْتَصَـرَ عليْه جيـشُ «جُنْرِيـلَ» وَ«رِيجان» وانتَهَـتِ المَعْرَكةُ بِأسْـرِ «كُرْدِلْيا» وأبِيهَا، وإيدَاعِهِمَا السِّـجْنَ بعد أن غُلِبَ جَيْشُهُمَا عَلى أمْرِهِ.

٢ ـ الْخُبَثَاءُ الثَّلَاثَةُ

تَمَّ الْفَوْزُ لِلْخُبَثَاءِ الثَّلاثةِ، أَعْنِي: «جُنْرِيل» و«ريجان» وَمُسْتَشارَهُما «إدْمُنْد»، الَّذِي قَادَ الْجَيْشَ وَأَحْرَزَ النَّصْرَ؛ فَكَانَ ذَلِكَ الْفَوْزُ شَرًّا ـ على أولَئِكَ الغادِرِينَ ـ من كلِّ هزيمةٍ! وسترَى ـ أيُّها القارئُ العزيزُ ـ فيما بَقِيَ من حَوادثِ القصَّةِ الْمُحْزِنَةِ وأنْبَائِهَا الرَّاعِبَةِ (الْمُخِيفَةِ)، مِصْدَاقَ ما حدَّثْتُكَ به (بُرْهَانَ صِدْقِهِ)!

٣ ـ بَيْنَ «أَلْبَاني» و«إدْمُنْد»

لقد حَسِبَ «إدْمُنْدُ» ـ حِينَ تَمَّ له الفوْزُ في تِلكَ الْمعْرَكَةِ الحاسِمَةِ (القاطِعَةِ) ـ أَنَّهُ قَدْ أَدْرَكَ أَرَبَهُ (مَطْمَعَهُ)، وظَفِرَ بأُمْنِيَّتِهِ في ارْتقاءِ عَرْشِ المملَكَةِ، بعد أن خَلَا الْجَوُّ مِنْ كُلِّ مُنافِسٍ له في المُلْكِ، ولَمْ يبْقَ أمامَهُ أحَدٌ يَخْشَى بأْسَهُ غيرُ الأمير «أَلْباني» زَوْجِ «جُنْرِيلَ».

وكانَ ذلِكَ الأميرُ طيِّبَ القَلْبِ؛ فلَمْ يَرْضَ عن شَيْءٍ مِمَّا اقترَفَهُ (ارْتَكَبَهُ) الْخُبَثَاءُ الثَّلاثَةُ مِنَ الأَوْزارِ وَالآثامِ (الذُّنُوبِ والْجَرائِمِ).

وأَصَرَّ الأميرُ «أَلْبَاني» عَلَى إطْلاقِ سَرَاحِ «كُرْدِلْيا» وأبيها من إسارِهِمَا، كَمَا أَصَرَّ «إدْمُنْدُ» على حَبْسِهِما. ودارَتْ مُناقشةٌ عنيفةٌ

بيْنَهُمَـا، وانْتَصَرَتِ الأُخْتانِ لِمُسْتشـارِهِمَا الْخَبيـثِ. وغَضِبَ الأميرُ «أَلْبَاني»؛ فَدَعاهُ لِلْمُبَارَزةِ (الْمُضارَبَةِ بالسَّيْفِ).

٤ـ بيْنَ «إدْمُنْدَ» و«إدْجارَ»

وجاءَ ـ في هذِهِ اللَّحْظَةِ ـ «إدْجارُ»: ابنُ الأميرِ «جُلُسْتَر»؛ فدَعا أخاهُ «إدْمُنْدَ» إِلَى نِزالِهِ (مُبارَزَتِهِ) قائِلًا:

«هَلُمَّ أَيُّهَا القائِدُ العَظِيمُ، فامْتَشِقْ حُسامَكَ (اشْهَرْ سَيْفَكَ)، واكتُبْ آخرَ صَفْحَةٍ في تَارِيخِ حَيَاتِكَ المملُوءَةِ بالشُّرورِ والأَرْجاسِ (الْخَطَايَا) والدَّنَايَا. هَلُمَّ فانتَقِمْ لِشَرَفِكَ مِمَّنْ يَرْمِيكَ بِكُلِّ مُخْزِيَةٍ، وَيَتَّهِمُكَ بكلِّ نَقِيصَـةٍ. هَلُمَّ إِلَيَّ؛ فَرَوِّ (اسْـقِ) رُمْحَكَ منْ دَمِي إِنِ اسْـتَطَعْتَ، لَعَلَّكَ تَغْسِلُ ما لَحِقَكَ مِنَ الإِهانَةِ الَّتِي لَوَّثْتُ بِهَا شَرَفَكَ الرَّفيعَ. فَإِنْ عَجَزْتَ عَنْ ذَلِكَ، فَلَنْ يُعْجِزَني قَتْلُكَ!».

فصاحَ فيهِ «إدمُنْدُ»:

«إِنَّمـا جـاءَ بـكَ إِلَيَّ حَيْنُـكَ (انقِضـاءُ أَجَلِـكَ). ولئن جَهِلْـتُ مَنْ أَنْتَ، لقَدْ عَلِمْتُ أَنَّك رَجُلٌ سـاقَتْهُ حَماقَتُهُ إلى الرَّدَى. وأَسْـلَمَه أَجَلُهُ إلى الْهَـلاكِ. وإِنَّ سَـيْفي هَذَا لَكَفِيـلٌ بتَأْدِيبِ أَمثالِـكَ، والتَّنْكيلِ بِكَ، وجَعْلِكَ عِبْرَةً لِكُلِّ مَنْ يَعْتَبِرُ».

وَما أَتَمَّ وَعِيدَهُ حتَّى بَدَأَ هُجُومَهُ عَلَى مُنازِلِهِ (خَصْمِهِ)، ودارَتْ رَحَى الْقِتَالِ بَيْنَهُمَا، وَاشْتَدَّ صِرَاعُهُما، وسُرْعَانَ ما عَاجَلَهُ «إِدْجارُ» بطَعْنَةٍ قاتلَةٍ؛ فَهَوَى «إِدْمُنْدُ» إلى الأَرْضِ مُجَدَّلًا (صَرِيعًا)، يَتَعَثَّرُ (يَتَخَبَّطُ) في دَمِهِ. واسْتَوْلَى الدَّهَشُ عَلَى الْحَاضِرِينَ، وَعَقَدَ الذُّهولُ أَلْسِنَتَهُمْ؛ فَلَمْ يَدْرُوا ما يَفْعَلُونَ.

٥ـ مَصَارِعُ الْخُبَثَاءِ الثَّلاثَةِ

ولمَّا سَقَطَ «إِدْمُنْدُ»، صاحَتْ «رِيجانُ» مُفَزَّعَةً، تَتَلَوَّى مِنْ فَرْطِ الأَلَمِ، ثُمَّ أُغْمِيَ عَلَيْهَا؛ فَوَقَعَتْ ـ مِنْ فَوْرِهَا ـ جُثَّةً هامِدَةً.

أَتَدْرِي ـ أَيُّهَا القَارِئُ العَزِيزُ ـ بأَيِّ شَيْءٍ قُتِلَتْ «ريجانُ»؟ بالسُّمِّ قَتَلَتْهَا «جُنْرِيلُ»؛ لِتَسْتَأْثِرَ بالْمُلْكِ وَحْدَهَا! وَلَكِنَّ أَمَلَهَا قَدْ خَابَ، حِينَ رَأَتْ قُوَّةَ «إِدْجارَ»، وانْتِصارَهُ عَلَى مُسْتَشَارِها «إِدْمُنْد»، الَّذِي نَاطَتْ (عَلَّقَتْ) بِهِ كلَّ آمَالِهَا في التَّفَرُّدِ بالْمُلْكِ، والاسْتِئْثارِ بالسُّلْطَانِ؛ فَعَاجَلَتْ نَفْسَهَا بِطَعْنَةٍ قاتِلَةٍ أَوْدَتْ بِهَا (أَهْلَكَتْهَا)، وَمَضَتْ بِرُوحِهَا إِلَى الْجَحِيمِ.

ورَأَى «إِدْمُنْدُ» أَنَّ كلَّ ما بَناهُ ـ بالغَدْرِ والعُقُوقِ والإساءَةِ إِلى أَقْرَبِ النَّاسِ وأَبَرِّهِمْ بِهِ ـ قَدِ انهارَ (سَقَطَ) أَمَامَهُ في لَحْظَةٍ واحِدَةٍ؛ فَصاحَ مُسْتَعْطِفًا قاتِلَهُ:

«خَبِّرْني برَبِّكَ: مَنْ أَنْتَ؛ لأَعْرِفَ اسْمَ مَنْ كُتِبَ عَلَى يَدَيْهِ مَصْرَعِي؟».

فَأجابَهُ «إِدْجارُ»:

«أَنا ابنُ مَنْ كافَأْتَ إِحْسانَهُ إِلَيْكَ، وبِرَّهُ بِكَ، وتَرْبِيَتَهُ إِيَّاكَ، أَقْبَحَ مُكافأَةٍ. أَنا ابْنُ الْأَمِيرِ «جُلُسْتر» الَّذِي تَبَنَّاكَ؛ فأَغْرَيْتَ بِهِ أَعْدَاءَهُ، وَمَكَّنْتَ لَهُمْ مِنَ التَّنْكِيلِ بِهِ؛ حَتَّى حَرَمُوهُ نُورَ عَيْنَيْهِ. وَقَدْ ماتَ ـ مُنْذُ دَقائِقَ ـ مِنْ هَوْلِ ما رَأَى مِنَ الْمصَائِبِ والْأَحْدَاثِ».

٦ ـ تَوْبَةُ الْعَالِمِ

فصاحَ «إِدْمُنْدُ» مُتَفَجِّعًا:

«ما أصدقَ ما فاهَتْ بِهِ شَفَتاكَ! لَقَدْ حَقَّ عَلَيَّ الشَّقاءُ، ولَقِيتُ ما أنا أَهْلٌ لَهُ مِنَ التَّنْكِيلِ والْجَزاءِ، وَحاقَتْ عَلَيَّ اللَّعْنَةُ إلى الأَبَدِ. وَلَكِنَّنِي أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ ضَارِعًا أَنْ تُسْرِعَ بِنَجْدَةِ «لِير» وَبِنْتِهِ «كُرْدِلْيا»؛ فَقَدْ أَصْدَرْتُ أَمْرِي بِقَتْلِهِمَا في سِجْنِهِمَا خُلْسَةً (خُفْيَةً)، قَبْلَ أَنْ أَشْتَبِكَ معك في هذه الْمَعْرَكَةِ الْقاضِيَةِ؛ لَعَلِّي أُكَفِّرُ ـ بِإِنْقَاذِهِمَا ـ عنْ شَيْءٍ يَسِيرٍ مِمَّا اقْتَرَفْتُ مِنَ الْخَطَايَا والآثَامِ الْمُوبِقَةِ (الْمُهْلِكَةِ)! هَلُمَّ فَأَنْقِذْهُمَا قَبْلَ أَنْ يَحُلَّ بِهِمَا الْهَلاكُ».

ثُـمَّ أُغْمِيَ عَلَيْـهِ، وَأَسْـلَمَتْهُ جِراحُهُ إِلَى الـرَّدَى (الْمَـوْتِ)؛ فَقَضَى مُشَيَّعًا (مُوَدَّعًا) باللَّعَنَاتِ، كَما شُيِّعَتْ «جُنْرِيلُ» وَ«رِيجَان».

٧ ـ مَصْرَعُ «كُرْدِلْيا»

وَلَقَدْ بَذَلَ الْحَاضِرُونَ كُلَّ مَا فِي مَقْدُورِهِمْ، فَأَسْرَعُوا الإِنْقَاذِ الأَسِيرَيْنِ. وَلَكِنَّ سُـرْعَتَهُمْ لَمْ تُغْنِ شَـيْئًا فِي إِنْقاذِ «كُرْدِلْيا» الطَّاهِرَةِ الْقَلْبِ، الزَّكِيَّةِ النَّفْسِ؛ فَقَدْ نَفَذَ سَـهْمُ الْقَضَاءِ ـ وَلَا مَرَدَّ لَـهُ ـ وَلَقِيَتْ حَتْفَها (هَلاكَهَا) مَصْلُوبَةً فِي السِّجْنِ قَبْلَ أَنْ تُدْرِكَهَا أَيْدِي الرُّحَمَاءِ الْمُنْقِذِينَ.

وَاسْـتَوْلَى الذُّعْرُ وَالْخَبَالُ عَلَى الشَّيْخِ «لِيرَ»، حِينَ رَأَى مَا حَلَّ بِابْنَتِهِ الْوَفِيَّةِ الَّتِي لَقِيَتْ حَتْفَهَا فِي سَـبِيلِ نُصْرَتِهِ؛ فَحَمَـلَ جُثَّتَهَا بَيْنَ ذِرَاعَيْهِ، وَهُوَ يُصَيِّحُ مُغَوِّثًا نَادِبًا:

«إِلَيَّ، أَيُّهَـا الْبَاكُونَ! إِلَيَّ، أَيُّها الْمُعْوِلُـونَ (الصَّائِحُونَ بِالْبُكَاءِ)! إِلَيَّ، أَيَّتُهَا الْحِجَارَةُ وَالصُّخُورُ الَّتِي سُمِّيَتْ أَنَاسِيَّ (بَنِي آدَمَ)! إِلَيَّ، فامْزُجُوا بِدُمُوعِـي دُمُوعَكُمْ، وَصَيِّحُوا مَعِي كَمَـا أُصَيِّحُ، وَأَعْوِلُوا نادِبِينَ حَتَّى تَنْفَطِرَ (تَنْشَقَّ) السَّمَاءُ عَلَيْنَا حُزْنًا وَأَلَمًا!

لَقَدْ ماتَتْ! أَلَا تُصَدِّقُونَ؟

وَيْ! هَلَكَتْ! أَمُكَذِّبِيَّ أَنْتُمْ؟

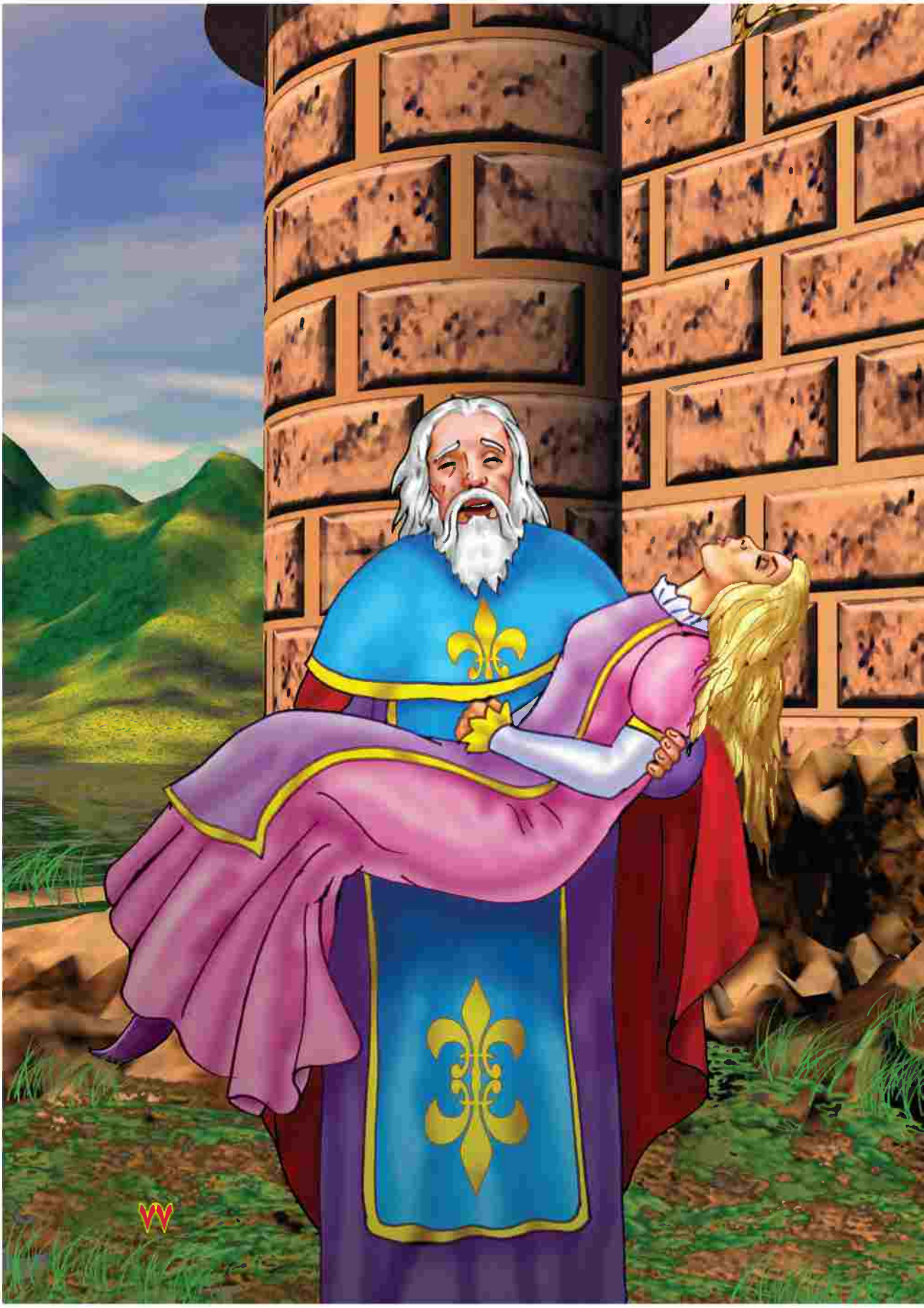

أَنا لَا أَجْهَلُ الْفَرْقَ بَيْنَ الْمَيِّتِ وَالْحَيِّ، إِنَّهَا لا تَنْبِس بِبِنْتِ شَفَةٍ (لا تَلْفِظُ بِحَرْفٍ)! لَقَدْ هَمَدَتْ، فمَا تُحِسُّ شَـيْئًا! هَاتُوا مِرْآةً فَأَدْنُوهَا مِنْ فَمِها؛ فَإِنْ طَبَعَتْ عَلَيْهَا نَفَسًا مِنْ أَنْفَاسِهَا، فَلا تَثِقُوا بِي!

آهِ لَوْ بَقِيَتْ سَالِمَةً إِلَى جَانِبِي! إِذَنْ غَفَرْتُ كلَّ ما حَلَّ بِي مِنْ أَحْدَاثٍ وَخُطُوبٍ!

إِذَنْ أَنْسَـتْنِيَ السَّـعادَةُ ـ بِحَيَاتِهَـا ـ كُلَّ مـا غَمَرَني (ما شَـمِلَنِي) مِنْ أَسْوَاءٍ (مَصَائِبَ) وأَحْزَانٍ!».

٨ـ لَوْعَةُ الثَّاكِلِ

وَحـاوَل خُلَصَـاؤُهُ وَأَصْفِيـاؤُهُ (أَصدقـاؤُه المُخْلِصُـونَ): «كَنْت» وَ«إِدْجَـار» و«أَلْبَـاني» جَمِيعًـا أَنْ يُهَوِّنُـوا علَيْـهِ مِنْ مُصابِـهِ وفَجِيعَتِهِ؛ فَصَيَّحَ فِيهِمْ مُعْوِلًا، وَقَدْ تَمَلَّكَهُ الذُّهُولُ:

«لَقَدْ مَاتَتْ، وَعَجَزْتُمْ عَنْ إِنْقَاذِهَا جَمِيعًا! فَمَا فَائِدَةُ الْحَيَاةِ بَعْدَهَا؟ واحَسْـرَتَا عَلَى شَبَابِهَا النَّاضِر! ما كانَ أَعْذَبَ صَوْتَهَا الرَّقِيقَ! وَما كانَ أطيبَ قَلْبَهَا الشَّـفِيقَ! أَرَأَيْتُمْ أَزْكَى (أَطْهَرَ) مِنْهَا نَفْسًـا، وأَكْرَمَ خُلُقًا؟ فَكَيْفَ امْتَدَّتْ إِلَى عُنُقِكِ يَدُ الْجَانِي الأَثِيمِ؛ فَأَقْدَمَ عَلَى صَلْبِكِ، دُونَ أَنْ تَأْخُذَهُ ـ فِي شَبَابِكِ ـ رَحْمَةٌ؟!

لَقَدْ صَرَعْتُ قاتِلَكِ بالسَّيْفِ، وما تَشَفَّيْتُ مِنْ غَيْظِي، وَلا بَرَدْتُ بِذلِكِ غَلِيلِي (لَمْ أَشْفِ حَرارَةَ حُزْنِي وحِقْدِي)!

يا لَهُمْ مِنْ أَثَمَةٍ طُغَاةٍ (مُجْرِمينَ مُعْتَدِينَ)! لَقَدْ خَنَقُوا «البُهْلُولَ» في السِّجْنِ، وَأَهْلَكُوهُ جَزَاءَ وَفَائِهِ لِي!

الوَيْلُ لِلْجَانِينَ! والوَيْلُ للسَّفَّاحِينَ (الَّذِينَ أَسالُوا الدِّماءَ)! لقد تَرَكُوا الْجِرْذَانَ (الفِيرَانَ) وغيْرَهَا من دَوابِّ الأَرْضِ، دُونَ أَنْ يَنْتَزِعُوا أَرْوَاحَهَا مِنْهَا. ولكنَّهُمْ ضَنُّوا (بَخِلُوا) عَلَى «كُرْدِلْيا» الوَفِيَّةِ الْمُخْلِصَةِ بالْحَيَاةِ الَّتِي تَنْعَمُ بِهَا الْخَيْلُ وَالْكِلَابُ!».

٩ ـ خاتِمَةُ «لِيرَ»

وهكذا اسْتَسْلَمَ الْمَلِكُ «لِيرَ» الْحَزِينُ الثَّاكِلُ (الَّذِي فَقَدَ وَلَدَهُ) لآلَامِهِ. وَمَا زَالَ يَهْذِي حَتَّى أَسْلَمَهُ هَذَيَانُهُ إِلَى الْجُنُونِ، وَاسْوَدَّتِ الدُّنْيَا في عَيْنَيْهِ، وغَمَرَتِ الأَحْزَانُ قلبَهُ؛ فَأَظْلَمَ، ثمَّ أُغْمِيَ عليهِ.

وأَفَاقَ لحظَةً قصيرةً، فالْتَفَتَ إلى وزيرِهِ الْمُخْلصِ قائلًا:

«كَنْت»: لَقَدْ عرَفْتُكَ!

«كُرْدِليا»: لَقَدْ فَقَدْتُكِ إِلَى الأَبَدِ!».

ثمَّ أُغْمِيَ عليْهِ ثانِيَةً، وأَسْلَمَتْهُ أَحْزانُهُ إِلَى الرَّدَى... فمَاتَ!

مكتبة الكيلاني

مَجْمُوعاتُها : تُسَايِرُ التِّلْميذَ في نَحْوِ مِائَةٍ وخَمْسِينَ قِصَّةً ، رائِعَةَ الصُّوَرِ ، بَدِيعَةَ الإخْراجِ ، مُتَدَرِّجَةً بِهِ مِنْ رِياضِ الأطْفالِ إلى خِتامِ التَّعْليمِ الثَّانَوِيِّ . ثُمَّ تُسْلِمُه إلى مكْتبةِ الكيلانيِّ للشَّبابِ .

مادَّتُها : تُقَوِّمُ الخُلُقَ ، وتُرَبِّي الذِّهْنَ ، وتُعَلِّمُ الأدَبَ .

فَنُّها : يَشُوقُ القارِئَ ويُمْتِعُه ، ويُحَبِّبُ الكِتابَ إليْهِ .

لُغَتُها : تُنَمِّي مَلَكَةَ التَّعْبيرِ ، وتَطْبَعُ اللِّسانَ عَلَى فَصيحِ البَيانِ .

ثَوْرَةٌ رَشِيدَةٌ ، أجْمَعَ عَلَى تَأْييدِها وُزَراءُ المَعارِفِ وزُعَماءُ التَّعْليمِ وقادَةُ الرَّأْيِ في الشَّرْقِ ، وكِبارُ المُسْتَشْرِقينَ وأعْلامُ التَّرْبيَةِ في الغَرْبِ .

أَوَّلُ مَكْتَبَةٍ عَرَبِيَّةٍ عُنِيَتْ بتَنْشِئةِ الطِّفْلِ عَلَى أَحْدَثِ أُسُسِ التَّرْبيةِ الصَّحيحَةِ . تَوالَتْ طَبَعَاتُها العَرَبِيَّةُ ؛ فَتَثَقَّفَ بِهَا الجِيلُ الجَديدُ في بِلادِ العُرُوبَةِ ، ولم يَخْلُ مِنْهَا بَيْتٌ عَرَبِيٌّ .

تُرْجِمَتْ إلى أكْثَرِ اللُّغاتِ الشَّرْقِيَّةِ وبَعْضِ اللُّغاتِ الغَرْبِيَّةِ .

مَدْرَسَةٌ حُرَّةٌ ، إذَا عَرَفَها التِّلْمِيذُ ، سَعَى إليْها بلا تَرْغيبٍ ولا تَرْهيبٍ .

كَانتْ أَكْبَرَ أُمْنِيَّةٍ للآباءِ ، وهِيَ اليَوْمَ أَشْهَى غِذاءٍ ثَقَافِيٍّ للأبْناءِ .